ساعة الاحتضار

وانكشاف الأستار

الطبعـة الأولى

١٤٤٧هـ

ساعة الاحتضار
وانكشاف الأستار

تأليف/

موسى بن ثابت بن محمد المطري

غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

اسم الكتاب: ساعة الاحتضار وانكشاف الأستار.

اسم المؤلف: موسى بن ثابت بن محمد المطري.

مقاس الصفحة: ١٧×٢٤.

نوع الطباعة: ملون.

عدد الصفحات: ١٨٤.

إدخال وتنسيق: أبو حمدان الهاملي ٧٧٤٥٧٦٩٩٩ ٩٦٧+

المقدمة

الحمد لله الذي خلق الموت والحياة ليبلوَنا أيُّنا أحسن عملاً، أحمده سبحانه وأستعينه وأستغفره وأتوب إليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادةً أرجو بها النجاة يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون، وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسوله، المبعوثُ رحمةً للعالمين، الهادي إلىٰ صراطٍ مستقيمٍ، صلوات ربي وسلامه عليه، وعلىٰ آله وصحبه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين.

أَمَّا بَعدُ:

فإن من أعظم ما يعين القلوب علىٰ التوبة ويُوقظ الغافلين من رقدة الأماني وطول الأمل: تذكُّرُ ساعةِ الرحيل وما يكون بعد أن تفيض الأرواح وتُسجّىٰ الأجساد، وتُلفُّ الأكفان، وتُشقُّ القبور، فيُوارَىٰ المرء بين التراب، فينقطع خبره عن الأحياء إلا من آثارٍ باقيةٍ أو عبرةٍ شاهدةٍ تُروىٰ فتوقظ قلوبًا خَبا فيها نور اليقين.

وإنَّ أعظم المواعظ بعد آيات الكتاب العزيز وسنة النبي ﷺ أن يرىٰ الإنسان بأم عينه عبرةً من ميتٍ كشف اللهُ سترَه عند رحيله، فظهرت علىٰ وجهه أمارات سوءٍ، أو تغيّر جسده تغيرًا يذكّر بالعاقبة، أو لفظته الأرض بعدما وُسّد في بطنها، أو خرجت إليه أفاعٍ أو دود أو روائح أو آياتٌ يُشهَد بها للناس، فتكون

صرخةً في أذن قلب كل غافل: أما آنَ للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق؟ أما آن لهم!.

ولقد جاءت النصوص المحكمة في كتاب ربنا تُبيّن أن الله يختم للعبد بخاتمةٍ توافق ما عاش عليه: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ﴾ [إبراهيم:٢٧].

وقال ﷺ: «**إنما الأعمال بالخواتيم**»[(١)]، وقال: «**يبعث كل عبدٍ علىٰ ما مات عليه**»[(٢)].

ولهذا كان السلف الصالح يخافون من سوء الخاتمة، ويُكثرون الدعاء بحسنها، ويَرْوُون من الأخبار ما يردع القلوب ويقيمها علىٰ الطاعة خوفًا من أن يُفضَحَ الإنسان ساعة لا ينفعه الندم ولا يُمهَل بالتوبة.

وقد تناقل الثقات في كتب الزهد والمواعظ أخبارًا عجيبةً عن أقوامٍ أسرفوا علىٰ أنفسهم فلمّا حضرتهم ساعة الفراق ظهرت أمارات سوء ظاهرةٌ علىٰ أبدانهم ووجوههم، حتىٰ تغيّرت سحناتهم أو أسودّت وجوههم أو خرج من أفواههم ما يُشمُّ منه رائحة العذاب، أو شهد مغسّلوهم بما رأوا من غرائب تغيّرٍ

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه مسلم.

أو رائحةٍ أو تشنّجٍ أو جمود، ثم زاد بعضهم أن الأرض قد لفظت بعض العصاة أو انشقّ القبرُ عمّن لم يُقبَل فيه، فتكون هذه الحوادث من العِظات الجارية، لا من أحكام الغيب التي لا يطّلع عليها إلا الله، بل هي مشاهداتٌ نقلها عدولٌ ثقاتٌ في القديم والحديث، شاهدةٌ بأن الله إذا شاء أظهر بعض الفضيحة ليعتبر الأحياء.

وإنَّ جمعَ هذه الأخبار مع التثبّت في نقلها، وضبط أسانيدها، وفرز الصحيح من الموضوع، لهو من أعظم ما يُرجىٰ به النفع في زمنٍ غفل فيه الناس عن الموت وخُدِرَت فيه القلوب بكثرة اللهو والشهوات والذنوب المستورة. فجاء هذا البحث ليكون تذكرةً للأحياء، وجامعًا لما تفرّق من هذه المشاهد في بطون الكتب وألسنة الناس، مع تحقيق ما ثبت منها وردّ ما لم يثبت، لئلا يُفتح باب القصص المكذوبة التي تُشين الدين ولا تنفع القلوب.

وقد رتبتُه علىٰ أبوابٍ تجمع أخبار الذين تغيّرت وجوههم عند الموت، وأخبار من تغيّر حاله في المغتسل، وأخبار القبور التي نبذت بعض الأجساد، أو ظهرت عندها الأفاعي أو الهوام أو ما يفزع الأحياء، مع ربط ذلك بالأدلة الشرعية، وذكر أقوال الأئمة في سوء الخاتمة، وأسبابها، وسبل الوقاية منها، وحسن الظن بالله تعالىٰ، والدعاء بالتثبيت حتىٰ آخر الأنفاس.

ولا يفوتني هنا أن أنبّه القارئ الكريم أن هذه العِبر ليست قاعدةً مطّردةً يُحكم بها علىٰ كل ميتٍ تغيّر جسده؛ إذ قد تكون لبعض التغيّرات أسبابٌ طبيعيةٌ

معروفة، فلا يُقضىٰ بها علىٰ سريرة العبد بغير بينةٍ، ولكن المقصود ما ظهر سببه، أو ما ثبت عن الثقات ممن شهد تغيّرًا مخيفًا مقترنًا بقرائن المعصية والإصرار عليها، ليكون في ذلك عبرةٌ لا غلوٌّ ولا خرافة.

فيا قارئ هذه الصفحات! إنما تقرأها لتذكّر نفسك أنك موقوفٌ لا محالة علىٰ باب القبر، وأنك ستُغسَّل وتُكفَّن وتُحمَل علىٰ الأكتاف، وأن الأرض التي وسِعَت الملوك والسوقة ستطويك، فإن كنت لله طائعًا سترىٰ من كرامة الختام ما يسرّك، وإن عصيت وأصررت وتهاونت، فلا تأمن أن يُظهِر الله من أمارات الفضيحة ما يخرق سترك ويُرعِب من حولك، فاستعن بالله علىٰ حسن الخاتمة، وجدّد التوبة، وأكثر من الدعاء.

وما هذه المشاهدات التي نراها من تبدل الوجوه، أو انبعاث الروائح، أو نفور الأرض من بعض الأجساد، أو رؤية الهوام والزواحف عند بعض القبور، وما يُروىٰ من تغيّر المغتسَل وتشنج الجسد وجموده؛ إلا شواهد محسوسة تُقرّ بها العيون، وتوقظ بها القلوب، وهي من دلائل ما أخبر الله به في كتابه، وأكّده نبيه ﷺ في سنته من ثبوت عذاب القبر ونعيمه، وهو من عقائد أهل السنة المتواترة، التي دلّت عليها النصوص الكثيرة، وأجمع عليها السلف والخلف.

فإن عذاب القبر ونعيمه حقٌّ لا مرية فيه، وواقعٌ لا خيال فيه، وهو أوّل منازل الآخرة، فمن نجا فيه كان ما بعده أيسر، ومن هلك فيه كان ما بعده أشد.

وقد ثبت في الصحيحين من حديث البراء بن عازب أن النبي ﷺ قال في

حديث طويل: «**إن العبد المؤمن إذا أجاب في قبره نادىٰ منادٍ من السماء: أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة وافتحوا له بابًا إلىٰ الجنة... وإن العبد الكافر إذا لم يُجب نادىٰ منادٍ من السماء: أن كذب عبدي، فأفرشوه من النار وافتحوا له بابًا إلىٰ النار...**»، وفي صحيح مسلم عن ابن عباس قال النبي ﷺ: «**إن هذه القبور مملوءة ظلمة علىٰ أهلها، وإن الله ينورها لهم بصلاتي عليهم**»[(١)].

فكل ما يراه الناس اليوم مما تنكره العقول الغافلة وتستهزئ به القلوب القاسية من هذه المشاهد العجيبة، ليس إلا قطرة من بحر ما أخبر الله به من أحوال القبور، وعذاباتها، وكشف الأستار فيها، ونعيم أهل الإيمان فيها إن صدقوا واتقوا.

بل إن ظهور هذه الآيات في بعض الحالات دليلٌ علىٰ أن الله سبحانه يُظهر بعض العذاب أو النعيم ليزداد أهل الإيمان يقينًا، ويستيقظ أهل الغفلة من رقدتهم، وتقوم الحجة علىٰ المعرضين، وتكون الآية للمعتبرين.

فكما أن للجنة بشائر في الدنيا تظهر علىٰ الصالحين، فللنار نُذُر وعلامات قد تَعرِض للعصاة عند وفاتهم أو في قبورهم، ليكون ذلك تصديقًا لما أخبر به الله ورسوله، وتثبيتًا لعقيدة المسلمين في ثبوت عذاب القبر ونعيمه، وردًّا علىٰ من أنكره أو تلاعب بألفاظه.

---

(١) رواه مسلم (٩٧٤)

اللهم يا مقلب القلوب ثبّت قلبي علىٰ دينك، اللهم إني أسألك حسن الختام، وأعوذ بك من سوء المنقلب.

اللهم يا حيُّ يا قيوم، يا واحد يا أحد، يا فرد يا صمد، يا من لا إله إلا أنت، يا مَن بيدك ملكوت كل شيء وإليك يرجع الأمر كله، نسألك بأسمائك الحسنىٰ وصفاتك العلىٰ أن تختم لنا بخير، وأن تقيَنا الفضيحة في الدنيا والآخرة.

اللهم استُر عيوبنا عند موتنا، واستُرنا عند غُسلنا وتكفيننا وحَملنا ودفننا، اللهم اجعل قبورنا روضةً من رياض الجنة ولا تجعلها حفرةً من حُفر النار.

اللهم يا مقلّب القلوب ثبّت قلوبنا علىٰ طاعتك، اللهم يا مصرف القلوب صرّف قلوبنا إلىٰ مرضاتك، اللهم إنا نعوذ بك من سوء الخاتمة، ونعوذ بك من أن تفضحنا بين عبادك أو تُسوّد وجوهنا أو تغيّر أجسادنا بما يشهد علىٰ عصياننا.

اللهم اجعل خير أيامنا يوم نلقاك فيه، وخير أعمالنا خواتيمها، وخير أعمارنا أواخرها. اللهم إن كنا عصيناك سرًّا فاستُرنا عيانًا، وإن كنا أسرفنا فاغفر لنا برحمتك وفضلك يا واسع المغفرة.

اللهم لا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تكلنا إلىٰ أنفسنا طرفة عين، اللهم أحينا ما دامت الحياة خيرًا لنا، وتوفّنا إذا كانت الوفاة خيرًا لنا.

اللهم إنا نسألك من الخير كله عاجله وآجله، ونعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله، اللهم توفَّنا مسلمين وألحقنا بالصالحين، غير مفتونين ولا مفضوحين

ولا نادمين.

ربنا آتنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرة حسنةً وقِنا عذاب النار، وصلِّ اللهم علىٰ نبينا محمدٍ وعلىٰ آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

كتبه:

موسى بن ثابت بن محمد المطري (١٤٤٠هـ)

دار الحديث السلفية بمعبر حرسها الله

سبب تأليف هذا الكتاب

إن هذا الكتاب الذي أسأل الله أن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، لم أُقدِم علىٰ جمعه وتسطير ما فيه إلا بعد تأملٍ طويلٍ في حال زماننا، ونظري في أمر القلوب التي قست وغفلت، وضعُف وقع المواعظ فيها إلا ما شاء الله.

فقد كثر في هذا العصر مَن يلهث وراء زخارف الدنيا، ويسترسل مع الشهوات، ويؤخّر التوبة، ويرجو طول الأمل، حتىٰ كأنَّ الموت مكتوبٌ علىٰ غيره!، وكأن القبور لا تُفتح إلا لغيره، وكأن الأكفان لا تلتف إلا علىٰ أجسادٍ بعيدةٍ عنه!

وما زاد قلبي حرقةً أني رأيت ـ ورأىٰ غيري ـ من أخبار الموتىٰ وقصص مغسّلي الأموات وحُفّاري القبور، ما فيه من العِبَر العظيمة والدروس المزلزلة للقلوب: كيف تتغيّر الوجوه، وكيف تتبدّل الأجساد، وكيف يُرىٰ في بعض الموتىٰ من آيات الوعيد ما يدلّ العاقل علىٰ سوء الخاتمة وفضيحة السريرة إن خذل اللهُ صاحبها وختم له بشرٍّ.

ثم تأملت في كتبنا العلمية الزاخرة، فما وجدت مؤلفًا جامعًا يُفرد هذه القصص التي تُرىٰ بالأبصار وتُشهَد عيانًا ويربطها بإثبات عذاب القبر.

ثم تأملتُ أحوال كثيرٍ من المسلمين اليوم فإذا الغفلة قد استحكمت،

والذنوب قد تراكمت، والألسنة قد اعتادت التسويف بالتوبة، والقلوب قد ضعُفت فيها رهبة الموت ورهبة القبر، وصار كثيرٌ من الناس يسمع بآيات القرآن وأحاديث النبي ﷺ فلا تتحرك بها جوارحه كما تتحرك إذا رأىٰ بعينه مشهدًا يهزّ روحه ويركع كبرياءه ويذكّره بضعفه وذلّه بين يدي ملك الملوك جل وعلا.

فأردتُ بهذا الكتاب أن أجمع هذه الأخبار بعنايةٍ وتحقيق، لا أسرد القصص كيفما اتفق، بل أنظر في سندها إن نُقل، أو أتحقّق من ثقة من نقلها إن كانت معاصرة، وأوثّق الصحيح وأُبعد المكذوب والمبالغ فيه، لأقدّم للقارئ كتابًا يكون حقًا «عِبرةً مشهودةً» يرىٰ فيها القارئ نفسه أمام أكفانٍ تتغيّر فيها الوجوه، وأمام قبورٍ قد لفظت أصحابها أو خرج منها ما يفزع الأحياء، ليعلم أن الله جل جلاله إذا شاء فضح، وإذا شاء ستر، وأن الموت بابٌ لا مهرب منه، وأن الخاتمة هي الميزان الفاصل بين نعيم أبدي أو عذابٍ خالد.

وما زاد إصراري علىٰ جمع هذا الكتاب أني سمعت بنفسي من ثقاتٍ أثق بدينهم وأمانتهم مواقف تُخلع منها القلوب: من تغيّر وجه ميّتٍ ساعة الغُسل، أو من جمود أطرافه، أو خروج رائحةٍ كريهةٍ لا تُطاق، أو نَبذ القبر له بعد دفنه، أو ظهور هوامّ وثعابين عند القبر بلا سبب ظاهر.

كلها مشاهد سمعتها من مصادرها الموثوقة، فكانت حجّةً علىٰ النفس قبل أن تكون حجّةً علىٰ غيري.

وإنه ليعلم الله أنّي ما جمعت هذه الأخبار شهوةً في التخويف أو ترويع الناس بالخرافة، ولا لبث الرعب الذي يُورث وساوس لا ثمرة لها، بل جمعتها لتكون عبرةً صادقةً نابعةً من النصوص القطعية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [فصلت:٣٠]، ولأذكّر نفسي وإخواني أن من عاش علىٰ شيء مات عليه، ومن مات علىٰ شيء بُعِث عليه.

وإنه ما من شيءٍ أرجوه من هذا العمل إلا أن يفتح الله به قلوبًا غلّفها الغفلة، ويحيي به ضمائر نامت علىٰ وسادة الذنوب المؤجلة، ويُذكّر به مُغترًّا بقوّته وسُلطانه أو شبابه وصحته أن الأمر كله بيد الله، وأن ستر الله لو زال لحظةً لانكشفت الفضائح، وما ستره الله في الدنيا قد يكشفه بعد الموت للناس إن شاء.

وقد استعنت في هذا الجمع بكتب الأحاديث والآثار والمصنفات التاريخية وكتب الزهد والرقائق وكتب القصص الموثقة، وحرصت علىٰ أن أربط كل ذلك بآياتٍ من كتاب الله وأحاديثٍ صحيحة من سنة نبيه ﷺ، لئلا يكون الوعظ مبنيًا علىٰ الهوىٰ أو العاطفة وحدها، بل علىٰ الحق الذي جاء به الوحي.

وإني لا أزعم أن هذا الكتاب كافٍ في وعظ القلوب أو إحياء ما مات منها، ولكن لعلّه يكون بابًا يفتحُ الله به القلوب الغافلة، ويكون سببًا في رجوع عبدٍ تائب، أو بكاءِ قلبٍ كان قاسيًا، أو دمعةٍ تخرج فتُطفئ نارًا كانت توشك أن تشتعل في القبر، وما خفي أعظم، وما عند الله خيرٌ وأبقىٰ.

وأسأل الله جل في علاه أن يجعله عملاً خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به كاتبه وقارئه وناشره، وأن يجعله من الأعمال التي تُخفّف ظلمة القبر وتكون ذخرًا عند لقاء الله، وأن يجعله صادًّا عن المعصية، باعثًا للقلوب علىٰ التوبة والإنابة، جامعًا للقلوب علىٰ الرجاء والخوف والمحبة معًا.

والله أسأل أن يتمّم فضله عليّ وعليكم، وأن يختم لنا ولكم بالحسنىٰ، إنه وليّ ذلك والقادر عليه.

بيان المقصود من هذا الكتاب

إن مقصود هذا الكتاب ليس الحديث عن عذاب القبر الغيبي الذي أخبر به النبي ﷺ في نصوصٍ صحيحةٍ ثابتةٍ نؤمن بها ونصدّقها غيبًا كما وردت، ولا يراه الناس بأعينهم ولا يُدرَك إلا بخبر الصادق المصدوق ﷺ لأن المصنفات في هذا الباب كثيرة، وإنما مقصود هذا الكتاب جمع ما يُشاهَد من علاماتٍ وظواهرَ يراها الناس عِيانًا عند موت بعض العصاة أو بعد دفنهم: من تغيّر الوجوه، وتبدّل الأجساد، وخروج الروائح، وظهور الهوام أو لفظ القبور لمن لم يُقبَل فيها، أو غير ذلك مما نقلته الأخبار الصحيحة أو المشاهدات الموثوقة.

وهو فرقٌ جوهريٌّ بين هذا الباب وغيره من كتب الترهيب التي تتكلم عن أحوال القبر الغيبية من فتنة القبر وسؤال الملكين وضغطة القبر ونعيمه وعذابه الذي لا تراه الأعين ولا تدركه الحواس، وإنما يُؤمن به المؤمن تصديقًا بالغيب كما ثبت في الكتاب والسنة.

أما ما اجتمع في هذا الكتاب فهو واقعٌ مشهودٌ للأحياء، ليكون عبرةً ظاهرةً تُذكّر القلوب بقدرة الله، وتدلّ علىٰ أن ستر الله في الدنيا قد يُرفَع بعد الموت لحِكمةٍ عظيمةٍ، وأن الخاتمة عنوان الصدق أو الفضيحة، كما قال ﷺ: «إنما الأعمال بالخواتيم».

فهذا الكتاب يجمع بين التأصيل الشرعي والعِبرة الواقعية، ويذكّر الناس أن من عاش علىٰ شيء مات عليه، ومن مات علىٰ شيء بُعث عليه، وأنه لا يأمن سوء الخاتمة إلا من ثبت قلبه علىٰ طاعة الله حتىٰ يلقاه.

والله ولي التوفيق.

خطة البحث

*** أولًا: المقدمة.**

بيان أهمية تذكُّر الموت والخاتمة.

التعريف بموضوع الكتاب وحدّوده: مشاهدات وظواهر ظاهرة تُرىٰ، لا أحوال القبر الغيبية.

الفرق بين علامات سوء الخاتمة المشهودة وعذاب القبر الغيبي.

هدف الكتاب: جمع القصص الصحيحة لتكون عِبرة للأحياء، مع بيان منهج التثبّت والتحقيق.

*** ثانيًا: التأصيل الشرعي.**

الآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة في بيان حسن وسوء الخاتمة.

معنىٰ الستر الإلهي للعبد في الدنيا.

أسباب كشف الستر بعد الموت.

الفرق بين الابتلاء الطبيعي والآيات التحذيرية.

*** ثالثًا: أسباب سوء الخاتمة.**

الإصرار علىٰ الكبائر والمجاهرة بالمعاصي.

طول الأمل والتسويف بالتوبة.

النفاق والرياء وسوء القصد.

التهاون بالعقيدة والصلاة.

غلبة الهوىٰ وضعف اليقين.

❊ رابعًا: المشاهدات والقصص.

مشاهد التغيّر عند الاحتضار أو الغُسل: شهادات المغسّلين.

قصص تغيّر الوجوه أو الأجساد عند التكفين.

حوادث لفظ القبور وخروج الأفاعي أو الهوام.

❊ خامسًا: العِبر والدروس.

تأملات في ستر الله في الدنيا وكشفه بعد الموت.

كيف يهيئ العبد لنفسه حسن الخاتمة.

وصايا عملية: التوبة – الخوف والرجاء – الدعاء بحسن الختام.

❊ سادسًا: الخاتمة.

خلاصة أهم العِبر.

رسالة إلىٰ القارئ: «كأنك أنت».

دعاء جامع بحسن الختام وستره في الدنيا والآخرة.

الآيات في بيان حسن وسوء الخاتمة

حسن الخاتمة هو المصير الحسن الذي يختم العبد حياته في الدنيا، كأن يموت وهو علىٰ حال يرضىٰ الله عز وجل، طاعة أو ذكر أو في سبيله، وقد اعتنىٰ علماء المسلمون والدعاة بهذا المفهوم لما له من أثر علىٰ مصير الإنسان في الآخرة، قال القرطبي: الخاتمة الحسنة لا تكون إلا لمن كان مستقيماً في حياته، محافظًا علىٰ حدود الله، مبتعد عن محارمه، ملازمًا للطاعة.

قوله تعالىٰ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾ [إبراهيم:٢٧].

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقول تعالىٰ ذكره: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله ورسوله، وصدّقوا بهما (بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ) يقول: يثبتهم بالإيمان به وبكتابه وبرسوله الذي أمرهم بالإيمان به في الحياة الدنيا عند المحيا، وفي الآخرة عند الممات وفي القبر إذا سئلوا عن ربهم ودينهم ونبيهم».

ثم ساق أثر البراء بن عازب: قال: «نزلت في عذاب القبر: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ

ءَامَنُوا﴾...»[١].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ قال: هو الشهادة أن لا إله إلا الله، قال ابن عباس: في الحياة الدنيا وفي الآخرة يعني في القبر، حين يُقال له: من ربك وما دينك ومن نبيك؟» وساق حديث البراء بن عازب الطويل في سؤال القبر[٢].

قال البغوي رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يعني عند الموت وعند سؤال القبر، ﴿بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ يعني: كلمة التوحيد، «فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» عند الموت، «وَفِي الْآخِرَةِ» في القبر، إذا سُئل: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟.»[٣].

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا تثبيت منه للعباد المؤمنين عند أشد الأوقات وأحرجها: في الدنيا عند الفتن، وعند الموت، وفي القبر عند سؤال الملكين... والقول الثابت: هو كلمة التوحيد وما تفرع منها»[٤].

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا

---

(١) "تفسير الطبري"، تحقيق شاكر (ج١٧/ ص٣١٠).

(٢) "تفسير ابن كثير"، طبعة دار طيبة (ج٤/ ص٥٤٥).

(٣) تفسير البغوي، طيبة، (ج٣/ ص٣٨٨).

(٤) "تفسير السعدي"، ط. الرسالة (ص٤٣١).

تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ﴾ [فصلت:٣٠].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأكثر الناس يموتون علىٰ ما عاشوا عليه، ويبعثون علىٰ ما ماتوا عليه»(١).

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: «قالوا ربنا الله: أقرّوا بتوحيده وطاعته، ثم استقاموا علىٰ طاعته وعبادته، قال: تتنزل عليهم الملائكة عند الموت تقول: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ﴾ علىٰ ما تقدمون عليه من أمر الآخرة، ﴿وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾ علىٰ ما خلفتم من أهل ودنيا، ﴿وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ﴾...»، وساق آثاراً عن السلف:

قال مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ: «استقاموا علىٰ شهادة أن لا إله إلا الله».

وقال قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان يقال لهم عند الموت: لا تخافوا ولا تحزنوا»(٢).

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي ثبتوا علىٰ الإيمان والعمل الصالح عند الموت، كما قال بعضهم: استقاموا علىٰ لا إله إلا الله حتىٰ لقوا الله عليها».

وقال سفيان الثوري: «استقاموا علىٰ أمر الله، فلم يروغوا روغان الثعالب. وتتنزل عليهم الملائكة عند الاحتضار تبشرهم: ألا تخافوا مما أمامكم ولا

---

(١) "الداء والدواء" (ص١٣٨)، طبعة عالم الفوائد.

(٢) "تفسير الطبري"، تحقيق شاكر، (ج٢١/ ص٤٢٧-٤٢٨).

تحزنوا علىٰ ما خلفتم»[(١)].

قال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قالوا ربنا الله: وحدوا الله. ثم استقاموا: أخلصوا العمل لله وعملوا بطاعته حتىٰ أتوه، قال مجاهد: علىٰ شهادة أن لا إله إلا الله حتىٰ ماتوا عليها».

وقال: «تتنزل عليهم الملائكة عند الموت وأول دخول القبر ألا تخافوا ولا تحزنوا»[(٢)].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا يشمل الاستقامة في جميع الدين: اعتقادًا وقولًا وعملًا ظاهرًا وباطنًا، فتتنزل عليهم الملائكة عند الاحتضار وفي القبر: ألا تخافوا مما أمامكم ولا تحزنوا علىٰ ما وراءكم... وهذا من أعظم البشارات عند الموت: حسن الخاتمة»[(٣)].

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر:١٩].

قال الإمام الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولا تكونوا كالذين تركوا أمر الله وتركوا طاعته، فأنساهم حظوظ أنفسهم من الخير، حتىٰ تركوا العمل لما فيه نجاة أنفسهم من

(١) "تفسير ابن كثير"، ط. دار طيبة (٧/ ١٨٩).

(٢) "تفسير البغوي"، ط. طيبة (٤/ ص٨٦).

(٣) "تفسير السعدي"، ط. الرسالة (ص٦٩٣).

عذاب الله، فأهلكوها»[١].

قال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «نَسُوا اللَّهَ: تركوا أمر الله وعبادته، فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ: أي حظ أنفسهم من الخير حتىٰ لم يعملوا لها عملاً صالحًا»[٢].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «نَسُوا اللَّهَ: تركوا ذكره وطاعته، فأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ: أي أضاعوا حظوظ أنفسهم فلم يسعوا لها بما ينجّيها من عذاب الله ويقرّبها من رحمته، فمن نسي الله أنساه نفسه وأهلكها»[٣].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي لا تنسوا ذكر الله فينساكم العمل الصالح الذي به تنجون يوم القيامة، فإنه من نسي الله نسي نفسه في الدنيا والآخرة»[٤].

فالآية تحذير لمن أراد حسن الخاتمة: أن لا يترك ذكر الله ولا طاعته، لأن نسيان الله سبب لأن يُترك وحيدًا عند الموت بلا ثبات ولا توفيق ولا حسن حال نسأل الله الثبات علىٰ دينه حتىٰ الممات.

قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [آل عمران:١٠٢].

---

(١) "تفسير الطبري"، تحقيق شاكر، (٢٣/ ص٤٨٢).

(٢) "تفسير البغوي"، ط. طيبة (ج٤/ ص٣٤٧).

(٣) "تفسير السعدي"، ط. الرسالة (ص٧٨٩).

(٤) "تفسير ابن كثير"، ط. دار طيبة (٨/ ص٨٣).

قال الإمام الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ أطيعوه حق طاعته، ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾: حافظوا علىٰ الإسلام حتىٰ يأتيكم الموت وأنتم عليه.

ثم نقل عن ابن عباس: «﴿حَقَّ تُقَاتِهِ﴾: أن يُطاع فلا يُعصىٰ، وأن يُذكر فلا يُنسىٰ، وأن يُشكر فلا يُكفر»[١].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: كما ينبغي له أن يُتقىٰ، ولا يترك شيء مما أمر به، ويجتنب كل ما نهىٰ عنه. ثم أمرهم بالمحافظة علىٰ الإسلام حتىٰ الوفاة فقال: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: احفظوا الإسلام في حال صحتكم لتموتوا عليه»[٢].

قال البغوي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِ﴾: أن يُطاع فلا يُعصىٰ، ويُذكر فلا يُنسىٰ، ويُشكر فلا يُكفر، ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾: دائمين علىٰ الإسلام محافظين عليه حتىٰ يأتيكم الموت»[٣].

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: احرصوا علىٰ تقوىٰ الله تعالىٰ بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وأوصاكم أن تلزموها إلىٰ الممات، فالمؤمن مطالب أن يثبت

---

(١) "تفسير الطبري"، تحقيق شاكر (٦/ ص٤٤٣).

(٢) "تفسير ابن كثير"، ط. دار طيبة (٢/ ص٩٤).

(٣) "تفسير البغوي"، ط. طيبة (١/ ص٣٤٦).

علىٰ الإسلام حتىٰ الموت»[(١)].

هذه الآية العظيمة فيها تأصيل عظيم في بيان الوسيلة العظمىٰ لحسن الخاتمة: تقوىٰ الله حق تقاته، ولزوم الإسلام حتىٰ الموت.

لذا كان السلف إذا قرأوها قالوا: من عاش علىٰ طاعة مات عليها، ومن مات عليها بُعث عليها.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [التوبة:٧٧].

الدلالة: بيّن الله أن بعض الناس عاهدوا الله فلما أخلفوا وعدهم وخانوا، جازاهم الله بخاتمة النفاق الدائم في قلوبهم حتىٰ الموت.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: عاقبهم بنفاق مستمر إلىٰ الممات»[(٢)].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ [الأنفال:٥٠].

الدلالة: فيها سوء الخاتمة عند الموت بالضرب والإهانة من الملائكة لهم،

---

(١) "تفسير السعدي"، ط. الرسالة (ص١٣٢).

(٢) "تفسير ابن كثير" (٤/ ص١٧١).

كما قال ابن عباس: «يتوفاهم عند قبض أرواحهم بضرب الوجوه والأدبار»[(١)].

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «والخواتيم ميراث السوابق، فمن كانت له سابقة خير، كان له خاتمة حسنة»[(٢)].

---

(١) "تفسير الطبري" (١٠/ ص٤٧).

(٢) التخويف من النار لابن رجب (ص١٠٠)، طبعة دار العاصمة.

الأحاديث في بيان حسن وسوء الخاتمة

إن العبد مهما طال عمره، وكثرت أعماله، فإنّ العبرة بالخواتيم، والموازين لا توزن في أول الطريق، بل في آخره، والقلوب لا تُعرف بما مضىٰ، بل بما خُتم لها عند الموت.

فيا غافلًا عن الموت...أما آن لك أن توقن أنّ اللحظة التي تموت فيها هي أخطر لحظة في حياتك كلها؟

هي لحظة انكشاف الحقيقة، وطيّ صحيفة العمل، وبدء حياة لا موت فيها...إما نعيم أبدي، أو عذاب لا ينتهي.

ويا من تطمئن لأعمالك...أما سمعتَ قول نبيك ﷺ:

«وإنّ أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتىٰ ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها»؟

فالعبرة إذًا بما يُختم به، لا بما يُعمل به أولًا.

الخاتمة الحسنة ليست حظًّا يُصيب من شاء، ولا صدفة تنزل فجأة، بل هي توفيقٌ من الله يُنال بالإخلاص والطاعة، ويُحرمها أهل المعاصي والإصرار والتسويف، ولو صاموا وصلّوا إن هم استكبروا عن التوبة، وغرّهم ستر الله.

وإن من أعظم ما يُخيف الصادقين، ويقلق قلوب المتقين، أن يختم لهم

بسوء، وإن من أعظم ما يطمع فيه الصالحون، ويرجوه العابدون، أن يختم لهم بخير، كما قال سفيان الثوري: «أبكاني ذنبٌ سلف، وخوف سوء الخاتمة».

ففي لحظة واحدة، تُختَبر سريرتك، ويُكشف خبيئة قلبك، ويُنادىٰ علىٰ روحك: إلىٰ أين؟ إلىٰ الجنة أم إلىٰ النار؟

ولعِظم هذا الباب، وجسامة هذا الموقف، كثرت النصوص في الكتاب والسنة التي تُظهر فضل حُسن الخاتمة وعلاماتها، وتحذر من سوء الخاتمة وأسبابها.

فهي ليست مجرد أخبار تُروىٰ، بل هي موازين إيمان، ومصابيح هداية، وتوجيهات نبوية تهز القلوب الغافلة، وتوقظ النفوس اللاهية.

وإليك الآن طائفةً من أحاديث النبي ﷺ التي بيّنت هذا الأمر بأوضح بيان، وأرشدت إلىٰ العمل الصالح قبل فوات الأوان، وبيّنت منازل الناس عند خروج أرواحهم، وصدق ما استقر في قلوبهم، وما تكنه صدورهم، فاقرأها بقلبك قبل عينك.

الحديث الأول:

عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «**من لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئًا دخل النار**»[(١)].

التعليق على الحديث:

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «هذا فيه التصريح بأن من مات علىٰ التوحيد دخل الجنة قطعًا، وإن كان قبل ذلك من أهل المعاصي، فهو تحت المشيئة».

أي: إن وقع منه ذنب دون الشرك فهو تحت مشيئة الله، إن شاء عذبه ثم أدخله الجنة، وإن شاء غفر له[(٢)].

وقال الحافظ رَحِمَهُ اللهُ: «في الحديث بيان أن النجاة مربوطة بالإخلاص لله في التوحيد، وأن الشرك سبب الخلود في النار».

وبيّن أن المقصود من الحديث: تحقيق معنىٰ التوحيد وأنه أصل الدين وأساس النجاة[(٣)].

وقال القاضي عياض رَحِمَهُ اللهُ: «في الحديث بيان أن النجاة مربوطة بالإخلاص

---

(١) أخرجه مسلم (٩٣)، وأخرجه والبخاري (١٢٣).

(٢) "شرح صحيح مسلم" (٢/ ٨٨).

(٣) "الفتح" (٣-٢٤١).

لله في التوحيد، وأن الشرك سبب الخلود في النار».

وبيّن أن المقصود من الحديث: تحقيق معنىٰ التوحيد وأنه أصل الدين وأساس النجاة[1].

وقال بعض السلف: «ما أبالي إذا علم الله مني التوحيد، ما صنعت بعد ذلك»[2].

دلالة الحديث في الباب:

حسن الخاتمة: أن يموت العبد علىٰ التوحيد خالصًا من الشرك، فهو داخل في قوله ﷺ: «**من لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة**».

وأي خاتمة أعظم من أن يموت العبد علىٰ التوحيد والسنة .

وسوء الخاتمة: أن يموت العبد علىٰ الشرك – والعياذ بالله – فيدخل في قوله ﷺ: «ومن لقيه يشرك به شيئًا دخل النار».

ولهذا كان السلف يخافون الشرك أكثر من غيره من الكبائر، لأنه سبب الهلاك الأبدي وسوء الخاتمة الحقيقي.

---

(١) «إكمال المعلم» (١/ ٢١١).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٣٢٨).

الحديث الثاني:

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة»[(١)].

التعليق على الحديث:

قال المنذري رحمه الله: «هذا فيه الحث العظيم علىٰ تلقين المحتضر كلمة الإخلاص ليكون آخر كلامه في الدنيا»[(٢)].

وقال النووي رحمه الله: «يستحب تلقين المحتضر كلمة الإخلاص امتثالًا لهذا الحديث، ليختم له بخير».

الاذكار (١٦٤).

وقال النووي رحمه الله: «يستحب تلقين المحتضر كلمة الشهادة، امتثالًا لقوله ﷺ: من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة. ولا يكرر عليه التلقين إذا قالها، إلا إن تكلم بعدها بغيرها فيعيد عليه برفق»[(٣)].

وقال القرطبي رحمه الله: «قال العلماء: معنىٰ قوله ﷺ: من كان آخر كلامه لا إله

(١) أخرجه أبو داود (٣١١٦)، والنسائي في "الكبرىٰ" (١١٠٣٧)، وصححه الألباني في "صحيح أبي داود" (٣١١٦) وصحيح الجامع (٦٤٧٩).

(٢) "الترغيب والترهيب" (٤/ ٢١٤).

(٣) "المجموع" (٥-٧٥).

إلا الله دخل الجنة، أي: إذا قالها عن إخلاص ويقين، وتحقيق لمقتضاها من التوحيد. ولا يُلهمها عند الموت إلا من كان قلبه عامرًا بالإيمان»[١].

هذا الحديث ليس مجرّد لفظ عند الموت، بل علامة عظيمة علىٰ صدق الإيمان وخلو القلب من الشرك والنفاق، لأن من عاش علىٰ التوحيد خُتم له به، ومن عاش علىٰ الرياء أو الغفلة قد يُحال بينه وبينها.

لذلك كان السلف يخافون سوء الخاتمة، ويستدلون بهذا الحديث علىٰ وجوب إصلاح القلب طول الحياة ليُختم له بخير.

الحديث الثالث:

عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«**يبعث كل عبد علىٰ ما مات عليه**»[٢].

التعليق على الحديث:

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فيه التحذير من المعاصي التي يُخشىٰ أن يموت العبد عليها، فيُبعث علىٰ حاله تلك، وفيه أن من مات علىٰ شيء بُعث عليه ليُجازىٰ بعمله، فمن مات علىٰ طاعة بُعث عليها، ومن مات علىٰ معصية بُعث عليها،

(١) «التذكرة في أحوال الموتىٰ وأمور الآخرة» (ص ٤٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٧٨).

نسأل الله العافية»[١].

وقال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال: يُبعث العبد علىٰ ما مات عليه، قال القرطبي: معناه أن من اعتاد عملًا في حياته وغلب عليه في الأغلب، يجري الله عليه نفس العمل عند موته غالبًا، يختم له به»[٢].

وقال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفي الحديث الآخر: «يبعث كل عبد علىٰ ما مات عليه»، وهذا يدل علىٰ أن الخاتمة تشرح حقيقة العبد. فمن مات علىٰ شيء بُعث عليه؛ لأنه يكون خاتمة عمله الذي يعرض عليه»[٣].

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال علماؤنا: معناه التحذير من الإصرار علىٰ المعاصي، إذ قد يقبض علىٰ حال العصيان فيُبعث كذلك، ويُخاف علىٰ المصر علىٰ الكبائر أن يحال بينه وبين التوبة حتىٰ يختم له بسوء»[٤].

هذا الحديث أصلٌ في باب الخواتيم: فمن مات علىٰ التوحيد والسنة بُعث عليهما، ومن مات علىٰ بدعة أو فسق أو معصية بُعث عليها، عياذًا بالله، لذا كان السلف يخافون من سوء الخاتمة خوفًا شديدًا.

---

(١) "شرح مسلم" (١٨-٢٢).

(٢) "الفتح" (٦-١٣٥).

(٣) "جامع العلوم والحكم" (ص ٦٢-٧٢).

(٤) "التذكرة" (٦٢).

الحديث الرابع:

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أراد الله بعبد خيراً استعمله**»، قالوا: وكيف يستعمله يا رسول الله؟ قال: «**يوفقه لعمل صالح قبل الموت**»[(١)].

التعليق على الحديث:

قال المباركفوري رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: «استعمله» أي: جعله عاملاً بطاعته مشتغلاً بها في زمن حياته، خصوصًا عند اقتراب أجله، ليكون آخر عهده بالدنيا عملًا صالحًا، فتكون تلك علامة حسن خاتمته»[(٢)].

وقال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: «إن من علامات حسن الخاتمة أن يوفق العبد قبل موته للتوبة والأوبة، أو عملٍ صالحٍ يختم به حياته، ولهذا قال ﷺ: إذا أراد الله بعبد خيرًا استعمله، أي: وفقه للطاعة قبل قبضه»[(٣)].

قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، وهو من أهل النار؛ ويعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس، وهو من

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٣٩٨) والترمذي (٢١٤٢)، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٣٠٥).

(٢) "تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي" (٦/ ٥١٩).

(٣) "جامع العلوم والحكم" (ص ٢٦).

أهل الجنة، إذا أراد الله بعبد خيرًا استعمله»، قيل: كيف يستعمله؟ قال: «يفتح له عملاً صالحًا بين يديه حتىٰ يقبضه عليه»(١).

قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا أراد الله بعبد خيرًا جعل ذنوبه بين عينيه، وكف يده عن أذىٰ الناس، واستعمله في طاعته حتىٰ يلقاه»(٢).

الحديث الخامس:

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنما الأعمال بالخواتيم**»(٣).

التعليق على الحديث:

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «معناه: أن الاعتبار بكمال الأعمال وخيرها إنما هو بالخاتمة، فمن أحسن في آخر عمره خُتم له بخير، ومن أساء خُتم له بشر، نسأل الله السلامة».

ثم ساق قول بعض السلف: «المغرور من اغتر بإمهال الله له ولم يعلم ما

---

(١) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٢٠٣٣٢) بإسناد صحيح.

(٢) «حلية الأولياء» (٢/ ١٣٤).

(٣) أخرجه البخاري (٦٦٠٧).

يُختم له به»[(١)].

وقال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فيه التحذير من الاغترار بالأعمال؛ لأن الأعمال معتبرة بالخواتيم. فلا يغتر أحد بظاهر الطاعة ما لم يثبت قلبه حتىٰ الممات»[(٢)].

وقال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذا أصل عظيم، وهو أن الاعتبار بكمال الأعمال وخواتيمها لا بأولها، ولهذا كان السلف يخافون من سوء الخاتمة خوفًا شديدًا»[(٣)].

وقال القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومعنىٰ هذا الأصل أن من سبقت له السعادة خُتم له بخير. ومن سبقت له الشقاوة خُتم له بشر، ولا حيلة للعبد إلا بالصدق والثبات حتىٰ يأتيه اليقين»[(٤)].

وقال الطيبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنما الأعمال بالخواتيم: أي إن الله يختبر عباده بخواتيم أعمالهم، فمن استقامت سريرته ختم له بخير، ومن فسدت سريرته انقلب حاله في النهاية»[(٥)].

---

(١) «الفتح» (١١-٤٩٩).

(٢) «شرح صحيح مسلم» (١٦/ ١٧٤).

(٣) «جامع العلوم والحكم» (ص ٢٢-٢٦).

(٤) «إكمال المعلم» (٨/ ١٤٧).

(٥) «شرح المشكاة الكاشف»، (٤/ ١٣٦٥).

قال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المراد أن الاعتبار عند الله بالخاتمة لا بالصورة الظاهرة»(١).

وقال ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فيه تحذير العبد من الاغترار بطاعته وسكونه إليها، وأنه ينبغي أن يسأل الله الثبات وحسن الختام»(٢).

الحديث السادس:

عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتىٰ ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها. وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتىٰ ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»(٣).

قلت: هذا الحديث العظيم هو أبلغ بيان لحقيقة حسن وسوء الخاتمة.

إذ يُظهر أن العبد قد يعمل ظاهرًا بعمل أهل الجنة طول عمره، ولكن إذا كان عمله بلا إخلاص أو كان في قلبه فساد خفي، قد يُكشف ذلك عند الموت فيُختم له بعمل أهل النار عياذًا بالله، فيكون سوء الخاتمة نتيجة سريرته.

---

(١) «معالم السنن» (٤-٢١٠).

(٢) «التمهيد» (٢٣/ ١٨).

(٣) رواه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣).

والعكس: قد يعيش الإنسان بعيدًا عن الطاعة، ثم يوفَّق في آخر لحظة لتوبة صادقة أو عمل خالص يختم له به بخير، فيكون حسن الخاتمة برحمة الله وصدق التوبة.

كما أن هذا الحديث أصل في الخوف من الرياء، والتأكيد أن العبرة ليست بكثرة العمل الظاهر، بل بصدق السريرة وثبات القلب حتىٰ آخر لحظة.

فالسعيد من صدق الله في عمله فثبَّته حتىٰ يختم له بخير.

الحديث السابع:

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أحب الله عبدًا عسله**»، قيل: وما عسله يا رسول الله؟ قال: «**يفتح الله له عملاً صالحًا بين يدي موته حتىٰ يرضىٰ عنه من حوله**»[(١)].

التعليق على الحديث:

ال الهيتمي رَحِمَهُ اللَّهُ: «معنىٰ عسله: طيّبه، يقال: عسل فلان إذا طيّب الثناء عليه بين الناس وأظهر جميل ذكره»[(٢)].

---

(١) أخرجه أحمد (١٣٠١٢) والحاكم (١٩٣٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع «إذا أحب الله عبدًا عسله» (١٧٢).

(٢) «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٦٦).

وقال المباركفوري رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: عسله، أي طيّبه، كما يعسّل العسل الطعام فيطيبه، فيُحسن عمله بين يدي موته فيُحسن الناس الثناء عليه. وهذا علامة حسن الخاتمة»[(١)].

وقال المناوي رَحِمَهُ اللَّهُ: «"عسله" أي طيّبه وجمّله بالعمل الصالح والثناء الحسن، لئلا يُظن به شر عند موته، بل يُظهر جميل خاتمته للخلق»[(٢)].

وقال المناوي رَحِمَهُ اللَّهُ أيضًا: «"حتىٰ يرضىٰ عنه من حوله" أي: يشهدون له بالصلاح وحسن العمل، وذلك علامة قبول العمل وحسن الختام، لأن الله لا يُظهر صلاح عبدٍ عند موته إلا وهو راضٍ عنه»[(٣)].

قال ابن الأثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «"عَسَّله" أي: طيَّبه، والعسل: الطيب، وأصله من العسل المعروف لطِيبه وحلاوته. والمعنىٰ: يُلهمه عملًا صالحًا يطيب به أثره عند الناس ويُثنون عليه به»[(٤)].

وقال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: «ومن علامات حسن الخاتمة: الثناء الحسن من الناس. وقد قال ﷺ: «أنتم شهداء الله في الأرض»، فمن أثنىٰ عليه الناس

---

(١) "تحفة الأحوذي" (٦/ ٥٢٠).

(٢) "فيض القدير" (١/ ٣٢٤).

(٣) "فيض القدير" (١/ ٣٢٥).

(٤) "النهاية في غريب الحديث" (٣/ ٢٢٠).

خيرًا كان ذلك علامة الخير»[(١)].

الحديث الثامن:

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «**من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه**»[(٢)].

قلتُ: هذا الحديث يكشف أن حب لقاء الله وكراهية لقاء الله لا تعني مجرد التمني أو النفور الطبيعي من الموت، بل معناها: ما يقع عند الاحتضار من انشراح الصدر أو ضيقه بحسب ما يُبشَّر به العبد.

فمن بُشِّر بحسن الخاتمة ورضوان الله أحب لقاء الله، فكان ذلك علامة القبول.

ومن عاين سوء الخاتمة كره لقاء الله فكره الله لقاءه نسأل الله العافية.

الحديث التاسع:

وعن بريدة بن الحصيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**موت المؤمن بعرق الجبين**»[(٣)].

---

(١) "جامع العلوم والحكم" (ص ٢٨).

(٢) رواه البخاري (٦٥٠٧) ومسلم (٢٦٨٣).

(٣) أخرجه النسائي (١٨٢٨)، أحمد (٢٢٩٤١)، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (ح

قلت: هذا الحديث يدل علىٰ أن من علامات موت المؤمن أن يكون موته في حال تعبٍ وكدٍّ في طاعة أو جهادٍ أو مرضٍ يُكفِّر الله به خطاياه، فيموت وعرقُه يفيض علىٰ جبينه، إشارةً إلىٰ خِفّة روحه.

ولهذا فسره العلماء بأنه علامة علىٰ حسن خاتمته؛ لأن العرق عند الموت من أمارات تفريج الكرب، ومن أمارات تيسير خروج الروح علىٰ طهارة ورضا.

۞ الحديث العاشر:

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلىٰ الدنيا وله ما علىٰ الأرض من شيء إلا الشهيد، فإنه يتمنىٰ أن يرجع فيُقتل عشر مرات لما يرىٰ من الكرامة**»(١).

۞ الحديث الحادي عشر:

وعن سهل بن حنيف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات علىٰ فراشه**»(٢).

٦٦١٨).

(١) أخرجه البخاري (٢٨١٧) ومسلم (١٨٧٧).

(٢) أخرجه مسلم (١٩٠٩).

الحديث الثاني عشر:

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلىٰ خيبر، ففتح الله علينا، فلم نغنم ذهبًا ولا فضة، غنمنا المتاع والطعام والثياب، ثم انطلقنا إلىٰ الوادي ومع رسول الله ﷺ عبد له أهداه له رجل من جذام يدعىٰ مدعمًا، فبينما هو يحط رحل رسول الله ﷺ إذ جاءه سهم عائر فأصابه فقتله، فقال الناس: هنيئًا له الجنة، فقال رسول الله ﷺ: «**كلا، والذي نفسي بيده إن الشملة التي أخذها يوم خيبر من المغانم لم تصبها المقاسم، لتشتعل عليه نارًا**»، ففزع الناس، فجاء رجل بشراك أو شراكين فقال رسول الله ﷺ: «**شراك من نار أو شراكان من نار**»[(١)].

الحديث الثالث عشر:

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الناس يُقضىٰ يوم القيامة عليه رجل استشهد فأُتي به فعرّفه نعمَه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتىٰ استشهدت. قال: كذبت ولكنك قاتلت ليقال جريء، فقد قيل. ثم أمر به فسُحب علىٰ وجهه حتىٰ أُلقي في النار.

ورجل تعلم العلم وعلّمه وقرأ القرآن فأُتي به فعرّفه نعمَه فعرفها. قال: فما

(١) رواه البخاري (٤٢٣٤)، ومسلم (١١٥).

عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وقرأت القرآن وعلّمته فيك. قال: كذبت، ولكنك تعلمت ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال قارئ، فقد قيل. ثم أمر به فسحب علىٰ وجهه حتىٰ أُلقي في النار.

ورجل وسّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأُتي به فعرّفه نعمَه فعرفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن يُنفق فيها إلا أنفقت فيها لك. قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال جواد، فقد قيل. ثم أمر به فسحب علىٰ وجهه حتىٰ أُلقي في النار»(١).

الحديث الرابع عشر:

وعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لأعلمنَّ أقوامًا من أمتي يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة بيضاء، فيجعلها الله عز وجل هباءً منثورًا**».

قال ثوبان: يا رسول الله صفهم لنا، جلّهم لنا، أن لا نكون منهم ونحن لا نعلم، قال: «أما إنهم إخوانكم ومن جلدتكم ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنهم قوم إذا خَلَوا بمحارم الله انتهكوها»(٢).

---

(١) رواه مسلم (١٩٠٥).

(٢) رواه ابن ماجه (٤٢٤٥)، وصححه الألباني في "صحيح ابن ماجه" (٣٣٨٠)، "السلسلة

الحديث الخامس عشر:

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟**» قالوا: بلىٰ. قال: «**الشرك الخفي، يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته لما يرىٰ من نظر رجل**»[(١)].

الحديث السادس عشر:

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الصدق يهدي إلىٰ البر، وإن البر يهدي إلىٰ الجنة، وإن الرجل ليصدق ويتحرىٰ الصدق حتىٰ يُكتب عند الله صديقًا. وإن الكذب يهدي إلىٰ الفجور، وإن الفجور يهدي إلىٰ النار، وإن الرجل ليكذب ويتحرىٰ الكذب حتىٰ يُكتب عند الله كذابًا**»[(٢)].

قلت: هذا الحديث يدل علىٰ أن من اعتاد علىٰ الكذب واستمر عليه قد يختم له بخاتمة سيئة عياذًا بالله.

الصحيحة» (٥٠٥).

(١) رواه أحمد (٢٣٦٣٠)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (ح ١٥٥٥).

(٢) رواه البخاري (٦٠٩٤)، مسلم (٢٦٠٧).

أقوال للسلف في حسن وسوء الخاتمة

قال سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما أبكى العيونَ إلا خوفُ سوء الخاتمة»[(١)].

وقال الفضيل رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنما يخاف الله من عرف الله، ومن عرف الله خاف سوء الخاتمة»[(٢)].

وكان عبد الله ابن المبارك كثيرًا يقول: «اللهم اختم لنا بخير، ولا تجعلنا عبرة»[(٣)].

وكان عمر بن عبد العزيز كثيرًا ما يدعو: «اللهم اجعل خير أيامي يوم ألقاك فيه»[(٤)].

وكان الحسن البصري كثيرًا ما يقول: «اللهم اختم بالباقيات الصالحات أعمالنا»[(٥)].

---

(١) "الحلية" (٧/ ٦١).

(٢) "الحلية" (٨/ ١٠٩).

(٣) "تاريخ دمشق" (٣٢/ ٤٠٥).

(٤) "البداية والنهاية" (٩/ ٢٠٠).

(٥) "البداية والنهاية" (٩/ ٢٨٠).

عبد الله بن رواحة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ذكر ابن الأثير: «لما حضرته الوفاة – في غزوة مؤتة – بكىٰ وقال: اللهم تقبّل مني هذا اليوم رضًا»(١).

عن إبراهيم النخعي قال: «كانوا يدعون الله أن يختم لهم بخير»(٢).

قال معاذ بن جبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إن المؤمن يُؤتىٰ به يوم القيامة فيُقال له: اعمل، فيقول: ربّ قد بلغني الموت، فيقول: قد علمت ذلك، ولكن انظر ماذا تُختم به»(٣).

قال مطرف بن عبد الله بن الشخير: «وجدت صلاح قلبي في أربعة: أن أعلم أن رزقي لا يأكله غيري فأطمئن، وأن عملي لا يعمله غيري فأخلص، وأن الموت يأتي بغتةً فأُبادر، وأن الله مطلع عليّ فأستحي»(٤).

قال أحد السلف: «أدركتهم وهم يخافون سوء الخاتمة، وكنت أرىٰ شرّ الناس من أمن من ذلك»(٥).

قيل لابن سيرين عند موته: أوصِنا، فقال: «عليكم بتقوىٰ الله، وأحسنوا الظن

---

(١) "الكامل" (٢/ ١٥٤).

(٢) "المصنف" (١٠/ ٢٥٦).

(٣) "الزهد للإمام أحمد" (ص ١١٦).

(٤) "الزهد للإمام أحمد" (ص ٢٠٢).

(٥) "سير أعلام النبلاء" (٦/ ٢٩٥).

به، واحذروا الذنوب فإنها تُخاف علىٰ من لزمها سوء الخاتمة»[١].

قال بكر المزني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما سبقهم أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام، ولكن بشيء وقر في صدره: الخوف من سوء العاقبة»[٢].

الحسن البصري كان يقول: «المؤمن يعمل الطاعات وهو خائف وجل، والفاجر يعمل المعاصي وهو آمن»[٣].

وقال الفضيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المؤمن يقول: ما عليّ ذنوبي، أخاف أن يُختم لي بشر»[٤].

قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «ما منكم من أحد إلا وهو مُوقن أن سيأتيه الموت، وهو غير مُوقن بما يُختم له به»[٥].

كان الأحنف يقول: «اللهم سلِّمني من البلاء عند الموت، ولا تفتني في ساعة الفتنة، ولا تجعل آخر عملي شره»[٦].

---

(١) "سير أعلام النبلاء" (٤/ ٦٠٦).

(٢) "الزهد لوكيع" (٢/ ٤٣٤).

(٣) "الزهد الكبير" للبيهقي (ص ١٠١).

(٤) "الزهد" لهناد بن السري (٢/ ٦١٦).

(٥) "الزهد لوكيع" (٢/ ٤٣٢).

(٦) "الزهد" للإمام أحمد (ص ٢٦٣).

قال سفيان رحمه الله: «كانوا يستحبون لمن حضره الموت أن يذكر حسن ظنه بالله وخوفه من سوء الخاتمة»[١].

قال شداد: «أعوذ بالله أن يكون آخر كلامي شر الكلام»[٢].

قال وهب بن منبه: «لو قيل لأهل القبور تمنّوا، لتمنوا حسن الخاتمة»[٣].

قال عطاء السلمي: «يا ربّ! من لم يحسن الختام، فما له من مقام، اللهم سلمنا»[٤].

قال أبو سليمان: «والله لو قيل لأهل النار: ما الذي أدخلكم النار؟ لقالوا: سوء الخاتمة»[٥].

قال ابن رجب رحمه الله: «ومن علامات حسن الخاتمة أن يُوفَّق العبد قبل موته لصالحٍ يشهده الناس، فيطيب ذكره ويُرضيهم عنه، وهذه من عاجل بشراه»[٦].

وقال القرطبي رحمه الله: «الثناء الحسن علامة من علامات حسن الخاتمة. فمن

---

(١) "شعب الإيمان" للبيهقي (١/ ٥٠٠).

(٢) "الزهد" لهناد بن السري (٢/ ٦٢٥).

(٣) "الزهد" لأحمد (ص ٣١٨).

(٤) "صفة الصفوة" (٣/ ٨٩).

(٥) "حلية الأولياء" (٩/ ٢٦٢).

(٦) "جامع العلوم والحكم" (ص ٢٦).

طاب ذكره فقد طاب باطنه غالبًا»[١].

قال الفضيل رَحِمَهُ اللَّهُ: «من ساءت سريرته ساءت خاتمته، ومن أحسن فيما بقي غُفر له ما مضىٰ. فإذا أراد الله بعبد خيرًا استعمله في أحسن العمل فيما بقي»[٢].

قال إبراهيم النخعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا أراد الله بعبد خيرًا فتح له باب عمل صالح، وأغلق عنه باب جدال، وإذا أراد به شرًا أغلق عنه باب العمل وفتح له باب الجدل»[٣].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد يُختم للعبد بخاتمة سوء بحسب عمله الذي داوم عليه، فمن عاش علىٰ شيء مات عليه، ومن مات علىٰ شيء بُعث عليه»[٤].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإنه سبحانه يبعث العباد يوم القيامة علىٰ ما ماتوا عليه من خير أو شر، وهذا تحقيق للعدل والجزاء من جنس العمل»[٥].

اللهم يا مقلب القلوب والأبصار، ثبّت قلوبنا علىٰ دينك، واختم بالصالحات أعمالنا، وبالسعادة آجالنا، وبالخير أيامنا.

---

(١) «التذكرة» (ص ٤٣).

(٢) «حلية الأولياء» (٨/ ١٠٩).

(٣) «الزهد» للإمام أحمد (ص ٢٧٦).

(٤) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٩٧).

(٥) «مدارج السالكين» (١/ ٣٢٨).

اللهم ارزقنا حسن الخاتمة، وأعذنا من سوء الخاتمة، ونجنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن،

ووفقنا لما تحب وترضىٰ، ولا تقبض أرواحنا إلا وأنت راضٍ عنا غير غضبان.

اللهم اجعل خير أيامنا يوم نلقاك فيه، واختم بالصالحات آجالنا برحمتك يا أرحم الراحمين.

معنى الستر الإلهي للعبد في الدنيا

الستر الإلهي هو لطف الله بعبده العصاة فيسترهم رغم معصيتهم، ليمنحهم فرصة التوبة قبل الفضيحة، ومن لم يقدّر هذا الستر ويشكر نعمة الستر فضحه الله إن شاء، في الدنيا أو عند الموت أو يوم القيامة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة...**»[(١)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً، ثم يصبح وقد ستره الله، فيقول: يا فلان عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه فيبيت يكشف ستر الله عنه»[(٢)].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله يدني المؤمن، فيضع عليه كنفه ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟**

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩).

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٦٩) ومسلم (٢٩٩٠).

فيقول: نعم أي رب، حتىٰ إذا قرره بذنوبه، ورأىٰ في نفسه أنه هلك، قال: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»[١].

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «**اللهم استر عوراتي وآمن روعاتي، اللهم احفظني من بين يديّ ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي، ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أُغتال من تحتي**»[٢].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤١) ومسلم (٢٧٦٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٥٠٧٤) وأحمد (٢/ ٢٥) وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (١٢٦٤).

الآثار

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لو كان للذنوب ريح ما قدر أحد أن يجلس إليّ»[١].

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إن العبد ليعمل الذنب فيلقي الله عليه الرعب في قلوب المؤمنين حتىٰ يُنسىٰ ذكره، ويكون عارًا عليه في قبره ويوم القيامة، إلا أن يتوب الله عليه»[٢].

قال الحسن البصري رحمه الله: «لقد أدركت أقوامًا ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أُوتوه، ولا يأسفون علىٰ شيء منها فاتهم، ولقد أدركت أقوامًا لو رأيت أحدهم في الطريق لم تشكّ أنه مريض، ولو خالطته لم تشك أنه قد خالط أهل القبور، وما كانوا يأمنون من ذنوبهم شيئًا، ولقد كانوا فيما بينهم أشد استحياءً من أحدهم من ربه عز وجل من الرجل من أهله»[٣].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في "المصنف" (٣٤٦٨٧) بإسناد صحيح إلىٰ عمر، وأخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٦٤٧٧).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب «التوبة» (٩٣)، وسنده حسن موقوفًا علىٰ ابن مسعود.

(٣) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٣٤) بسند حسن.

قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن المؤمن يستر وينصح، والفاجر يهتك ويعيّر»[١].

قال معروف الكرخي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من استتر بستر الله في الدنيا لم يفضحه الله يوم القيامة»[٢].

قال سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا زلّ العالم ستره الله، فإذا رجع إلىٰ الحق نُشر له ذلك حتىٰ يُحتذىٰ به»[٣].

عن الضّحّاك في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان:٢٠]، قال: «أمّا الظّاهرة فالإسلام والقرآن. وأمّا الباطنة فما يستر من العيوب»[٤].

وعن عثمان بن أبي سودة قال: لا ينبغي لأحد أن يهتك ستر الله تعالىٰ، قيل: وكي يهتك ستر الله؟ قال: «يعمل الرّجل الذّنب فيستره الله عليه فيذيعه في النّاس»[٥].

فيا عبد الله...

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في "الصمت" (٣٣١) بسند حسن.

(٢) أورده أبو نعيم في "الحلية" (٨/ ٣٥٩) بإسناد حسن.

(٣) أورده الخطيب في الفقيه والمتفقه (٢/ ١٦٣).

(٤) "مكارم الأخلاق" (٤٨٠).

(٥) "مكارم الأخلاق" (٥٠٤).

تأمَّل كم مرة عصيتَ الله، فعافاك...

وكم مرة خالفت أمره، فما فضحك...

كم من ذنبٍ اقترفتَه، فلو شاء الله لأسمع به السامعين، وأبصره الناظرين، ولكنَّه بلطفه سَتَرك، وبحلمه أمهلك، وبرحمته دعاك إلىٰ التوبة، فهل أجبت؟

إن سترَ الله للعبد ليس دليل رضا، وإنما هو فرصة عظيمة، بل نعمة خفية، لا يقدّرها إلا من خاف مقام ربه وخشي الحساب.

فلا يكن سترك اليوم سببًا لهتكك غدًا، ولا يكن حلم الله عليك دافعًا للتمادي، فإن الله يُملي للظالم حتىٰ إذا أخذه لم يُفلته.

ألا ترىٰ كيف قال نبيّنا ﷺ: «**كل أمتي معافىٰ إلا المجاهرين**».

فعدَّ المجاهرة بالمعصية - ولو باللسان بعد الستر - من أسباب سلب العافية ورفع الستر، وإظهار الفضيحة في الدنيا والآخرة.

فيا من سترك الله... لا تكشف سترك بيدك، ولا تفضح نفسك بلسانك، ولا تكن سببًا في إهانتك بين الناس، أو بين يدي الملائكة في عرصات القيامة.

واعلم أن الله إذا أحب عبده ستره، وإذا أبغض عبداً فضحه، ولو في عقر داره.

إنّ من أعظم ما يُرجىٰ للعبد في دنياه وآخرته، أن يُدفن ذنبه بينه وبين ربّه، فلا يُطّلع عليه أحدٌ من خلقه، لا بقول ولا بفعل، ولا بعينٍ ولا بأثر.

وقد قيل: «كُن بين الناس صالحًا، وكن بينك وبين الله مُعتذرًا».

فلنستحي من الله حق الحياء، ولنغتنم ستره قبل أن يُرفَع، ولنجعل من لحظات الخلوة مواطن توبة، لا مواطن جُرأة علىٰ المعصية.

ولنتذكّر دائمًا دعاء نبيّنا ﷺ: «**اللهم استر عوراتي وآمن روعاتي**».

فإنّ الستر من أجلّ النّعم، وهتك الستر من أعظم النِّقم.

نسأل الله بوجهه الكريم أن لا يفضحنا علىٰ رؤوس الخلائق، ولا يرفع عنّا ستره، وأن يُكرمنا بستره في الدنيا والآخرة، وأن يجعلنا ممن إذا ذَكروا الذنب تابوا، وإذا ذكروا الستر شكروا، وإذا خافوا من الفضيحة رجعوا.

اللهم كما سترتنا فوق الأرض، فاسترنا تحت الأرض، ويوم العرض.

أسباب كشف الستر بعد الموت

إن من أعظم نعم الله علىٰ عبده أن يستره في الدنيا، فيخفي ذنوبه وعيوبه عن الخلق، ولا يفضحه بما يقترفه من معاصٍ وزلات.

وقد جعل الله هذا الستر علامةً من علامات لطفه ورحمته بعبده، إذ لو كشف ستره لهتك عرضه وضاعت هيبته وسقطت مكانته بين الناس.

غير أن هذا الستر قد يُرفع عن العبد في حياته أو عند موته أو بعده، فينكشف ستر الله عنه، فيرىٰ الناس من خبايا ذنوبه ما كان يستره ربه، ويكون ذلك - والعياذ بالله - بسبب أعمالٍ وعللٍ عظيمة من أبرزها:

- الإصرار علىٰ الذنب مع المجاهرة به أو الاستهانة به وعدم التوبة منه.
- الرياء والسمعة وطلب المدح من الناس، حتىٰ يُفضحه الله بما أخفىٰ.
- ظلم العباد وأكل حقوقهم، فيُفضح بقدر مظلمته.
- قلة الحياء من الله ومخالفة أمره في السر.
- نزع البركة من القلب بسبب سوء القصد وضعف الإخلاص.

وهذه الأسباب دلّت عليها نصوص الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح، وهي تحذير للعباد أن يستمسكوا بستر الله ويجتهدوا في التوبة والخوف من الفضيحة، فإن من سُتر في الدنيا وسُتر في الآخرة فقد ربح أعظم الربح، ومن

هُتك ستره خسر خير الدنيا والآخرة.

وفيما يلي طائفة من الآثار المأثورة عن السلف رحمهم الله، تبين هذه الحقيقة وتحذر من أسباب كشف الستر.

قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾ [الطارق:٩].

قال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تُبلىٰ: تُكشف»[(١)].

عن الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنما يَكْشِفُ اللهُ سَتْرَ العبد إذا لم يكن له حياء في خلوته»[(٢)].

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من استتر عن الناس بمعصيته فليحذر أن يُفضَح بستره إذا عاود ولم يتب»[(٣)].

وقال عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا رأيت الله يستر علىٰ العبد وهو مقيم علىٰ المعصية، فاعلم أنه يستدرجه، فإن تاب ستره، وإلا فضحه»[(٤)].

قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما أحب أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس

(١) "تفسير الطبري" (٢٤/ ٤٢٤).

(٢) "حلية الأولياء" (٨/ ٩٢).

(٣) "صيد الخاطر" (ص ٢٣٥).

(٤) "الزهد والرقائق" لابن المبارك (ص: ١٩٥).

ولا غربت في معصية أكتمها عن الناس، وأرجو أن أسترها من الله»[١].

قال إبراهيم النخعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن الرجل ليعمل العمل في السر فلا يزال به الشيطان حتىٰ يُذكره، حتىٰ يُكتب في العلانية»[٢].

قال ابن سيرين رَحِمَهُ اللَّهُ: «إني لأعلم ذنبًا عملته عشرين سنة ما نسيتُه بعد»[٣].

قال يوسف بن أسباط رَحِمَهُ اللَّهُ: «الذنوب تعمل في القلوب ما تعمل الديدان في الجسد، إن لم يظهر أولها ظهر آخرها»[٤].

قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: «من أحب أن يُذكر لم يذكر، ومن كره الذكر ذُكر، ومن أحب الرياء افتُضح»[٥].

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «فمن ستر الله عليه في الدنيا ولم يتب فُضح يوم القيامة»[٦].

قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «المؤمن يعمل بالطاعات مستورًا خائفًا، يبيت

---

(١) «حلية الأولياء» (٥/ ٢٩٢).

(٢) «الزهد» لأحمد بن حنبل (ص ١٧٢).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٦١١).

(٤) «حلية الأولياء» (٨/ ٢٩٩).

(٥) «حلية الأولياء» (٨/ ٩٢).

(٦) «جامع العلوم والحكم» (ص ٢٠٨).

وقد بات الناس آمنين، ويصبح وقد بات الناس آمنين، وهو خائف مما ستر الله عليه»[(١)].

قال الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا أراد الله بعبد خيرًا جعل له واعظًا من قلبه يأمره وينهاه، وإذا أراد به غير ذلك نزع منه الحياء، فلم يبالِ ما قيل فيه»[(٢)].

قال ابن السماك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن استطعت ألا يُعرف لك ذنب فافعل»[(٣)].

قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «إن للحسنة نورًا في الوجه، وضياءً في القلب، وسعة في الرزق، ومحبةً في قلوب الخلق، وإن للسيئة سوادًا في الوجه، وظلمةً في القبر والقلب، ووهَنًا في البدن، وبغضةً في قلوب الخلق»[(٤)].

قال يوسف بن أسباط رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما عملت ذنبًا قط إلا رأيت أثره في خُلُقي أو دابتي أو ولدي أو جاري»[(٥)].

وبهذا يتبين لنا أن السلف الصالح كانوا أشدَّ الناس خوفًا من انكشاف ستر الله عنهم في الدنيا أو بعدها، لما علموا من خطورة الذنب وآثاره الخفية

---

(١) «الزهد» لأحمد بن حنبل (ص: ٢٩٥).

(٢) «حلية الأولياء» (٦/ ١٤٦).

(٣) «حلية الأولياء» (٨/ ٢٢٣)

(٤) «الزهد» لهناد بن السري (١/ ٣٢٤).

(٥) «حلية الأولياء» (٨/ ٢٩٩).

والعلنية. فرأوا أن التوبة والحياء ومراقبة الله في السر والعلن هي حجاب العبد وستره من الفضيحة والهتك، وأن من أصرَّ علىٰ الذنب وأصرَّ علىٰ ظلم العباد، ولم يبالِ بنظر الله إليه، خيف عليه أن يُفضَح عاجلًا أو آجلًا.

فالواجب علىٰ المسلم أن يستتر بستر الله الذي أكرمه به، وأن يحافظ عليه بصدق التوبة والإخلاص، ومحاسبة النفس ومجانبة أسباب الرياء والظلم والمجاهرة بالمعصية، رجاءً أن يختم الله له بالسَّتر الجميل في الدنيا والآخرة.

ونسأل الله الستر في الدنيا والآخرة، والعفو والعافية في الدين والدنيا، إنه سميع قريب مجيب.

الفرق بين الابتلاء الطبيعي والآيات التحذيرية

الابتلاء الطبيعي:

هو ما يُقدره الله علىٰ عباده من المصائب والأحداث المؤلمة اختبارًا لهم في إيمانهم وصبرهم، ليميز الله الخبيث من الطيب، ويرفع الدرجات، ويكفر السيئات، دون أن يكون ذلك دليلًا حتميًا علىٰ غضبٍ أو ذنبٍ.

الآيات التحذيرية:

هي حوادث كونية أو شدائد عامة يرسلها الله إنذارًا للأمة أو للعصاة أو الظالمين، فيها تذكير وتخويف، لتردهم إلىٰ التوبة والصلاح، وقد تكون عقوبة مستترة لمن لم يعتبر.

الخلاصة:

الابتلاء الطبيعي: يكون فرديًا أو عامًا، وهو سنة ماضية في المؤمن وغيره.
الآيات التحذيرية: رسائل من الله لتذكير الناس، وقد تكون نُذُرًا أو عقوبات.

❁ مثال الابتلاء الطبيعي من القران:

قال تعالىٰ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥)﴾ [البقرة:١٥٥].

وقال تعالىٰ: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢)﴾

[الملك:٢].

❁ مثال الآيات التحذيرية في القران الكريم:

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ۝٥٩﴾ [الإسراء:٥٩].

قال المفسرون: يعني الرعد والزلازل والخسف والريح الشديدة... كلها لتخويف العباد(١).

وقال تعالىٰ عن الأمم السابقة: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ۝٤٢﴾ [الأنعام:٤٢].

وقال تعالىٰ: ﴿ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ۝١٣٣﴾ [الأعراف:١٣٣].

❁ الأحاديث:

عن أبي مسعود الأنصاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينكسفان لموت أحد من الناس ولا لحياته، ولكن الله يخوّف بهما عباده**»(٢).

عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الريح من روح الله، تأتي**

(١) "تفسير الطبري" (١٧/ ٤٢١).

(٢) رواه البخاري (١٠٤١)، ومسلم (٩٠١).

بالرحمة وتأتي بالعذاب، فإذا رأيتموها فلا تسبوها، وسلوا الله من خيرها، واستعيذوا بالله من شرها»[(١)].

❁ الآثار:

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «كم من مؤدب الله لم يؤدبه الناس!»[(٢)].

قال الحسن البصري رحمه الله: «ما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رفع إلا بتوبة»[(٣)].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا يُعجبكم كثرة الصلاة والصيام، ولكن انظروا من إذا أؤتمن أدى، وإذا أذنب استغفر»[(٤)].

وقال ابن القيم رحمه الله: «البلاء للمؤمن رفعة وتكفير، وأما الآيات العامة فهي نُذُر زواجر»[(٥)].

---

(١) رواه أبو داود (٥٠٩٩) في كتاب "الأدب"، باب ما يقول إذا هاجت الريح، رواه الترمذي (٢٢٥٢) في كتاب "الفتن"، باب ما جاء في الريح، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٣٦١٤).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٠٦) عند تفسير قوله: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [سورة الأنعام:٤٢].

(٣) "حلية الأولياء" (٢/ ١٥٣).

(٤) "الزهد" لأحمد (ص ١٣٨).

(٥) "مفتاح دار السعادة" (٢/ ١٠٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن من العقوبات ما يكون ظاهرًا كالقحط والأمراض، ومنها ما يكون باطنًا كقسوة القلوب»[(١)].

قال مطر الوراق رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن الله يرسل الآيات تترى لتُذكِّر الغافل وتؤدب الظالم وتدعو التائب وتبتلي المؤمن»[(٢)].

فيه الجمع بين كونها ابتلاءً وتحذيرًا.

وقال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾ [الإسراء:٥٩]: «إن الله يخوف الناس بما شاء من آية لعلهم يعتبرون أو يذكرون أو يرجعون»[(٣)].

وهذا صريح في أن الآيات التحذيرية مقصود بها التخويف بخلاف الابتلاء الذي يكون رفعًا وامتحانًا.

وقال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الرعد والصواعق والزلازل والكسوف آيات يخوف الله بها عباده»[(٤)].

قال أبو العالية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كانت الريح والظلمة والصيحة آيات أُخذ بها قوم

(١) "الاستقامة" (١/ ٤٦٦).

(٢) "تفسير ابن أبي حاتم" (٤/ ١١٢١).

(٣) "تفسير الطبري" (١٧/ ٤٢١).

(٤) "تفسير ابن أبي حاتم" (٨/ ٢٧٨١).

صالح وقوم عاد، وهي اليوم آيات تخويف»[(١)].

فيه أن نفس الظواهر قد تكون آية تخويف أو عقوبة علىٰ الظلم.

قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا رأيت الرجل يُبتلىٰ فاعلم أن الله يريد أن يطهره، وإذا رأيت البلاء يعمّ، فاعلم أنه نذير عام»[(٢)].

وهذا يوضح لك الفرق أن الابتلاء الفردي (تكفير) والبلاء العام (تحذير).

إخواني الكرام إن هذه السنن الإلهية ماضية لا تتبدّل ولا تتحوَّل، وقد شاء الله عزّ وجل أن يجعل في تقلبات أحوال الخلق بين البلاء والعافية، والرخاء والشدة، دلائل ناطقة شاهدة علىٰ حكمته وقدرته وعدله ولطفه.

فالابتلاء الطبيعي سُنَّة ثابتة يمتحن الله بها قلوب عباده، ليميز الخبيث من الطيب، ويهذّب النفوس، ويرفع الدرجات، ويكفّر السيئات، ويذكّر الغافلين بحقيقة العبودية وضعف الإنسان وفقره إلىٰ ربّه، ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥﴾ [البقرة:١٥٥].

وأما الآيات التحذيرية فهي نُذُرٌ تطرق القلوب طرقًا بليغًا، توقظ من رقدة الغفلة، وتردُّ العباد إلىٰ جادة التوبة والإنابة، وتكشف للناس أن وراء هذا الكون ربًّا عزيزًا جبارًا يُمهل ولا يُهمل، ﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ٥٩﴾ [الإسراء:٥٩].

(١) "تفسير الطبري" (٩/ ١٩٤).

(٢) رواه عنه ابن أبي الدنيا في "الاحتجاج بالقدر" (ص ٨٦).

ومن تأمَّل في آثار السلف وكلام الأئمة علم أنهم كانوا يفرّقون بين ما يُبتلىٰ به المؤمن من ضراء تُطهّره وتُرقّيه، وبين آياتٍ عامةٍ يُرسلها الله إذا ظهرت الغفلة واستحكمت الذنوب، ليُري عباده طرفًا من قدرته، ويدعوهم إلىٰ طاعةٍ بعد معصية، وخشيةٍ بعد غفلة.

فطوبىٰ لمن عقل الحكمة من البلاء، واستبصر بالآيات قبل الفوات، وتدارك ما بقي من العمر بتوبة صادقة وإخلاصٍ مبرأٍ من رياء ومراء. نسأل الله أن يجعلنا من المتّعظين بآياته، الصابرين عند ابتلائه، المنيبين إليه في السراء والضراء، إنه سميع قريب مجيب.

أسباب سوء الخاتمة

۞ أولاً: فساد العقيدة من أعظم أسباب سوء الخاتمة.

إن من تأمل في نصوص الكتاب والسنة وآثار سلف هذه الأمة علم يقينًا أن فساد المعتقد أعظم ما يورد العبد موارد الهلاك، ويحول بينه وبين حسن العاقبة، فإن التوحيد هو أصل الدين وأساس النجاة، وأي خلل فيه أو إعراض عنه يجرّ علىٰ صاحبه سوء المنقلب وخيبة المصير.

فمن عاش علىٰ معتقدٍ فاسدٍ، أو خالط قلبَه شكٌّ في أصل التوحيد، أو استكبر عن عبادة ربه وحده لا شريك له، فليبكِ علىٰ نفسه قبل أن يبكىٰ عليه؛ إذ لا ينجو عند الموت إلا من لقي الله بقلب سليم مخلصٍ من الشرك والبدعة والزيغ.

وقد أجمع أهل العلم علىٰ أن الخواتيم ميراث السوابق، وأن القلب إذا أسلم لله حقًّا سلِمَ عند النزع، وإذا دَخَله خَلَلٌ في عقيدته خانَه عند الاحتضار، وخاب رجاؤه، وحُجِبَ لسانه عن كلمة التوحيد التي هي مفتاح النجاة.

ولهذا كان الصالحون يخافون علىٰ قلوبهم من فساد المعتقد أعظم من خوفهم من ذنوب الجوارح، إذ الذنب مع التوحيد يرجىٰ لصاحبه الغفران، وأما الشرك أو البدعة المكفرة فلا يرجىٰ معها غفران ولا أوبة، والعياذ بالله، ﴿إِنَّ

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٦١ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [البقرة:١٦١-١٦٢].

فليكن المسلم أشد ما يكون حرصًا علىٰ تصحيح معتقده، وتجريد توحيده، ومجانبة كل ما يقدح في عقيدته، رجاء أن يثبّته الله عند الموت ويختم له بخير، ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [إبراهيم:٢٧].

قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨].

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كل ذنبٍ يرجىٰ له التوبة إلا من مات مشركًا»[(١)].

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أكبر الكبائر الإشراك بالله واليأس من روح الله والأمن من مكر الله»[(٢)].

وقال سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ: «الخوف من سوء الخاتمة أن يموت العبد علىٰ غير التوحيد»[(٣)].

وقال إبراهيم التيمي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما عرضت قولي علىٰ عملي إلا خشيت أن

---

(١) "تفسير الطبري" (٥/ ٦٧).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في "المصنف" (١١/ ٣٥).

(٣) ذكره الذهبي في سير "أعلام النبلاء" (٧/ ٢٤٣).

أكون مكذبًا»[١].

أي: كان يخاف من نفاق الباطن الذي يفسد أصل الدين فيحبط العمل كله.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وسوء الخاتمة لا تكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه، وإنما تكون لمن له فساد في العقيدة، أو إصرار علىٰ كبيرة، أو إقبال علىٰ الدنيا وإعراض عن الآخرة»[٢].

قال يوسف بن أسباط رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «علامة سوء الخاتمة الإعراض عن التوحيد»[٣].

عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «اعلم أن سوء الخاتمة من قدم لنفسه سوء المعتقد»[٤].

قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنما هلك من كان قبلكم حين بدلوا دينهم وتركوا توحيد ربهم»[٥].

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَنْ كان باطنه فاسدًا لم ينفعه صلاح ظاهره عند

---

(١) «حلية الأولياء» (٤/ ٢١٠).

(٢) «الداء والدواء»، (ص: ١١٨).

(٣) ذكره ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ٤٤٦) بمعناه.

(٤) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١/ ٤٧).

(٥) «حلية الأولياء» (٥/ ٢٩٢).

الموت»[١].

❁ ثانيا: من أسباب سوء الخاتمة الإصرار على الكبائر.

إن من تأمل سِيَر العابدين ونصوص الشرع علم أن العبد إذا تجرّأ علىٰ حدود الله وألِف الذنب وأصرّ عليه كان ذلك نذيرًا بانطماس بصيرته، وانسلاخ قلبه من حياة التوبة، حتىٰ يُخشىٰ عليه أن يُقبض وهو غافل لم يثب ولم يرجع.

فما أهلك القلوب مثل الإصرار علىٰ الخطيئة، إذ المعصية جُرح، والإصرار قَتْلٌ؛ والمعصية زلّة، والإصرار انتكاس. فمن أصرّ علىٰ كبيرة أو صغيرة ولم يطرق باب التوبة فقد عرّض نفسه للخذلان عند الموت، فإن الخاتمة ميراث السريرة، والقلب الذي أصرّ صاحبه علىٰ معصية لا يرجو التوبة منها يكون عند النزع مستثقِلًا كلمة الحق، بعيدًا عن الرضا والطاعة.

ولهذا كان الصادقون يعدّون الذنب مع الإصرار أكبر خطرًا من الذنب نفسه، لأنهم علموا أن الذنب مع ندمٍ مغفورٌ، ومع إصرارٍ مهلكٌ.

قال بعضهم: «ربّ معصية أورثت ذلًّا وانكسارًا خير من طاعة أورثت عجبًا واستكبارًا».

فليتأمل العاقل حاله مع ذنوبه: أقد جعل لها توبة؟ أم أقام عليها مستكبرًا،

(١) "جامع العلوم والحكم" (ص ١٢١).

يواعد نفسه كل حين ويخلف؟ فإن النفس إذا ألفت المعصية استمرأت الذنب، واستثقَلت التوبة، فغلب عليها الهلاك، والعياذ بالله.

فليكن شعار المسلم: كل ذنبٍ له توبة، ولا صغيرة مع إصرار، ولا كبيرة مع استغفار. فمن أطاع الله سرًّا وعلانيةً خُتم له بخير، ومن أصرّ علىٰ معصيته خاف السلف عليه أن يُقبض علىٰ أسوأ حاله، ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٨١].

قال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥﴾ [آل عمران:١٣٥].

التحذير من الإصرار علىٰ المعصية مع العلم بها، وهو من أسباب قسوة القلب وسوء العاقبة.

وقوله تعالىٰ: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤﴾ [المطففين:١٤].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار»[(١)].

قال سفيان الثوري رحمه الله: «أخوف ما أخاف علىٰ نفسي أن أسلب التوبة عند

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في "المصنف" (١١/ ٣٣) بسند صحيح.

الموت»[١].

قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «الذنب علىٰ الذنب يميت القلب حتىٰ يصير كالكوز مُجَخِّيًا لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا»[٢].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: «واعلم أنّ سوء الخاتمة -أعاذنا الله منها- لا تكون لمن استقام ظاهره، وصلح باطنه، ما سمع بهذا ولا علم به، ولله الحمد، وإنّما تكون لمن له فساد في العقيدة، أو إصرار علىٰ الكبائر، وإقدام علىٰ العظائم، فربّما غلب ذلك عليه، حتىٰ ينزل به الموت قبل التوبة، فيأخذه قبل إصلاح الطوِيّة، ويُصطلَم قبل الإنابة، فيظفر به الشيطان عند تلك الصدمة، ويختطفه عند تلك الدهشة. والعياذ بالله»[٣].

قال الحافظ أبو محمَّد عبد الحقّ بن عبد الرحمن الإشبيلي: «واعلم أنّ لسوء الخاتمة -أعاذنا الله منها- أسبابًا،ولها طرق وأبواب، أعظمها: الإكباب علىٰ الدنيا، والإعراض عن الأخرىٰ، والإقدام والجرأة علىٰ معاصي الله.

وربما غلب علىٰ الإنسان ضرب من الخطيئة، ونوع من المعصية، وجانب من الإعراض، ونصيب من الجرأة والإقدام، فملكَ قلبَه، وسبق عقله، وأطفأ

---

(١) "حلية الأولياء" (٧/ ٦١).

(٢) "حلية الأولياء" (٢/ ١٣٥).

(٣) "الداء والدواء" (٣٩١).

نوره، وأرسل عليه حجبه، فلم تنفع فيه تذكرة، ولا نجعت فيه موعظة. فربما جاءه الموت علىٰ ذلك، فسمع النداء من مكان بعيد، فلم يتبيّن له المراد، ولا علم ما أراد، وإن كرّر عليه الداعي وأعاد!»[١].

❁ ثالثا: سوء الظن بالله.

إن من أعظم ما يصدّ القلوب عن حسن الختام وطيب المصير أن يسوء ظن العبد بربه جل جلاله، فيقنط من رحمته، أو يستعجل عذابه، أو يظن به ظن السوء الذي لا يليق بكمال قدرته ولطف عفوه وعظيم مغفرته.

وما هلك الهالكون إلا حين ظنوا بالله غير الحق ظن الجاهلية، فما أعظم جرمهم عند ربهم وما أخيب مسعاهم!.

إن القلب إذا تلوث بسوء الظن بالله تعطلت عنه بوارق الرجاء، وانطفأت أنوار التوبة، وانسدّت أبواب الأوبة، فلا يزال العبد يتقلب في يأسه حتىٰ توافيه المنية وقلبه خاوٍ من حسن الرجاء بربه، فيختم له بشر، ويُطوىٰ ديوانه علىٰ حرمان وغبنٍ لا تدركه فيه حيلة ولا شفاعة.

وقد قال جل في علاه: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ [الفتح: ٦]﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ

(١) كتاب «العاقبة» (١٧٨ – ١٨٠).

﴿وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ﴾ [الفتح:٦]، فهم ظنوا أن الله لا ينصر رسوله ولا يتم أمره، فخابوا وخسروا الدنيا والآخرة.

فحسن الظن بالله حياة القلوب وريحانة النفوس، به تحيا النفوس وتطمئن الأرواح وتُرجىٰ المغفرة وتُستدرك الزلّات. وأما سوء الظن فسمٌّ قاتل، يُميت أمل القلب ويُقعد صاحبه عن العمل، حتىٰ يختم له بشرّ عاقبة.

فالواجب علىٰ العبد أن لا يقطع رجاءه من ربه طرفة عين، فإن من ظن بربه خيرًا وجده، ومن ظن به غير ذلك هلك، كما في الحديث القدسي: «أنا عند ظن عبدي بي»، فطوبىٰ لمن علق قلبه برحمة ربه، وساء ظنه بنفسه، وحسن ظنه بربه، فذلك الذي يرجىٰ له الختام الحسن.

﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧﴾ [يوسف:٨٧].

عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ»(١).

قال النووي رحمه الله: «معناه الحثُّ علىٰ تحسين الظن بالله عند الموت، لأنه أحوج ما يكون العبد إلىٰ حسن الظن بربه عند انقطاع عمله»(٢).

(١) رواه مسلم (٢٨٧٧).

(٢) "شرح النووي علىٰ مسلم" (١٧/ ٢١٠)

قال أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ اللَّهُ: «من أحسن ظنه بربه عز وجل في هذه الدار حسن عمله، ومن حسن عمله ختم له بخير، ومن أساء ظنه بربه أساء عمله، فكان من سوء ظنه سوء خاتمته»[(١)].

وعن إبراهيم التيمي رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: «ما عرضت قولي علىٰ عملي إلا خشيت أن أكون مكذبًا، وإن الرجل ليُبلىٰ بالفقر فيسيء الظن بربه، فلا يرضىٰ بما قُسم له، فيسوء عمله، فيختم له بشر»[(٢)].

وقال سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنما يَخاف العبد سوء الخاتمة إذا أساء الظن بربه، وأصرّ علىٰ الذنب»[(٣)].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: «أعظم الذنوب عند الله إساءة الظن به، فإنه لو أحسن ظنه لأحسن عمله، فكل من أساء العمل فهو من سوء ظنه بربه، ولو حسن ظنه لحمله حسن ظنه علىٰ حسن العمل»[(٤)].

قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: «لو أني أعلم أن الله قبل مني مثقال حبة من خردل لحُسِب لي ذلك خيرًا من الدنيا وما فيها، لأني أعلم أنه يقبل الطيب، إنما

---

(١) ذكره ابن القيم في "مدارج السالكين" (٢/ ٢٣٩).

(٢) "حلية الأولياء" (٤/ ٢١٠).

(٣) "المجالسة وجواهر العلم" لأبي بكر الدينوري (٥/ ١٤٠).

(٤) "مدارج السالكين" (١/ ٩٣).

يخاف العبد أن يُخذل في آخر عمره».

ثم قال: «وإنما يُخذل العبد بسوء ظنه بربه»[(١)].

الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما خافه عبد قط إلا أمنه الله، وما أمنه عبد قط إلا أخافه الله».

وفسرها بعض أهل العلم: أن سوء الظن بالله وقلة الخوف منه من أعظم أسباب سوء الخاتمة[(٢)].

قال أبو الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «إن العبد ليعمل الحسنة فيأمن بها، ولو خاف الله فيها لكانت خيرًا له، وإن العبد ليعمل السيئة فيخاف الله فيها فتكون خيرًا له»[(٣)].

قال ابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من أعظم الذنب عند الله أن يقول العبد: لا يغفر الله لي»[(٤)].

قال مالك بن دينار رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لو استطعت أن لا أنام خوفًا من سوء الخاتمة لفعلت، ومن ظن أنه ناجٍ فهو الهالك»[(٥)].

---

(١) "حلية الأولياء" لأبي نعيم (٨/ ٩٢).

(٢) "الزهد" للإمام أحمد (ص ٢٦٣)، "حلية الأولياء" (٢/ ١٥٤).

(٣) "حلية الأولياء" (١/ ٢١١)، "الزهد" لوكيع (٢/ ٥٣٦).

(٤) "الزهد" للإمام أحمد (ص ٢٤٩)، "الزهد" لابن المبارك (ص ٤٠).

(٥) "صفة الصفوة" (٣/ ٢٧٦)، "حلية الأولياء" (٢/ ٣٦٧).

وقال قال بعضهم: «ما خاف عبدٌ سوء الخاتمة إلا أُمِّن، وما أَمِنَها إلا خُذِل»[١].

إن من أعظم ما يُفسد قلب العبد في خلوته وعند نزول أجله أن يحمل في صدره ظنًّا فاسدًا بربه جلَّ في علاه؛ فيقنط من رحمته، أو ييأس من عفوه، أو يشك في كمال عدله ووعده ووفائه لعباده المؤمنين. فمتىٰ تطرق سوء الظن إلىٰ القلب أظلمت طرق التوبة، وفسدت نية العمل، وضاع الرجاء، فتنقلب الطاعات رياءً والذنوب قنوطًا، فتتبدل عليه السيئات بالحسرات حتىٰ ينزل به الموت علىٰ غِرّة فيُختم له بشر ختام.

فحُسن الظن بالله عز وجل رأس الرجاء وحادي العمل الصالح، وأما سوء الظن به سبحانه فمهوىٰ القلوب الهالكة، وباب من أبواب الخذلان الذي قد يورد العبد موارد سوء الخاتمة؛ نعوذ بالله من ذلك. فليتدارك المؤمن قلبه قبل الفوات، وليُعنِ قلبه علىٰ إحسان ظنه بربه؛ فإن من ظن بربه خيرًا ساقه الله إلىٰ خير، ومن ظن به سوءًا لم يَرَ إلا ما ظن، قال الله تعالىٰ: ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ١٢﴾ [الفتح:١٢].

فاللهم إنّا نعوذ بك من ظنٍ يصدّ عن التوبة، ويقنط من الرحمة، ويورث

---

(١) "حلية الأولياء" (٢/ ١٤٠).

سوء الختام، ونسألك حُسن الظن بك ظنًّا يحسن به العمل وتُختم به الحياة برضاك.

❁ رابعا من أسباب سوء الخاتمة: الرياء والنفاق.

إن من أخطر الآفات التي تقطع طريق العبد إلىٰ حسن الختام: خُبث النفاق وخفاء الرياء، فإنهما داءان يسريان في القلب خُفية، فيفسدان النية ويشوِّهان العمل، حتىٰ يصير ظاهره طاعةً وباطنه خداعًا ومكرًا.

فالمنافق يُظهِر الإيمان ويبطن الكفر أو الفجور أو الشك، فيأتيه الموت علىٰ حاله تلك، فتُسلب عنه معونة التوبة ويُحال بينه وبين الصدق، فيلقىٰ ربَّه بوجهٍ كاذب وقلبٍ غادر، فيكون من الخاسرين الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [التوبة:٦٧]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء:١٤٥].

وأما الرياء فهو شِعبة من النفاق، يبتغي به العبد ثناء الناس ومدحهم، فيخسر أجر عمله ويبتعد قلبه عن الإخلاص، فإذا جاءه الموت لم يجد ما يلقَىٰ به ربَّه من صدقٍ ولا إخلاصٍ، فيكون ختام عمله باطلاً منثورًا، ويخشىٰ أن يُحال بينه وبين شهادة التوحيد عند الاحتضار.

فالرياء يُزهِق روح العمل، والنفاق يُطفِئ نور القلب، وكلاهما سهم من سهام إبليس يورث العبد سوء الخاتمة إن لم يتدارك نفسه بالإخلاص

والصدق.

فاللهم طهر قلوبنا من النفاق وأعمالنا من الرياء، وأحسن عاقبتنا في الأمور كلها.

قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ [النساء:١٤٥].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الناس يُقضىٰ يوم القيامة عليه رجل استُشهد فأُتي به فعرّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتىٰ استُشهدت. قال: كذبت، ولكنك قاتلت ليقال جريء، فقد قيل، ثم أُمر به فسُحب علىٰ وجهه حتىٰ أُلقي في النار...

ورجل تعلم العلم وعلّمه وقرأ القرآن... فيقال: كذبت، ولكنك تعلمت ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال قارئ، فقد قيل، ثم أُمر به فسُحب علىٰ وجهه حتىٰ أُلقي في النار...»(١).

وعن محمود بن لبيد الأنصاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**»، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «**الرياء، يقول الله عز وجل لهم يوم القيامة إذا جُزِيَ الناس بأعمالهم: اذهبوا إلىٰ**

---

(١) رواه مسلم (حديث رقم: ١٩٠٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الذين كنتم تراءون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً؟»[(١)].

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إنما أخاف عليكم شُعب النفاق»، قيل: وما شُعب النفاق؟ قال: **«أن يعمل الرجل بطاعة الله ثم يُدخل فيها شيء من هوىٰ الناس»**[(٢)].

قال شداد بن أوس رضي الله عنه: «يا أيها الناس! إن أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية»[(٣)].

قال مطرف رحمه الله: «كفىٰ بالنفاق شؤمًا أن يختم الله لصاحبه بسوء الخاتمة»[(٤)].

قال عبد الله بن عمرو بن العاص: «لأن أكون أعلم أن الله تقبّل مني صلاة واحدة أحبّ إليّ من الدنيا وما فيها».

ثم قال: «لأن المنافق يُصلي ولا يقبل الله منه شيئًا»[(٥)].

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (حديث رقم ٢٧٧٤٢)، والطبراني في «الكبير» (٥٨٠)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٥٥٥).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الإخلاص والنية» (٣٤)، وفي «الصمت» (٤١٨).

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في «الإخلاص والنية» (٣٨).

(٤) ذكره أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ٢٠٢)، وابن المبارك في «الزهد» (١١٠٢).

(٥) «الزهد» للإمام أحمد (ص ١٧٦)، «حلية الأولياء» (١/ ٢٨٩).

قال الأوزاعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما من شيء أخوف علىٰ العبد من أن يُبتلىٰ بالرياء فيفسد عليه حسناته كلها»[١].

قال أبو قلابة رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا أحدث العبد في دينه رياءً فضحه الله علىٰ رؤوس الخلائق يوم القيامة، وختم له بشرّ عمله»[٢].

وهكذا بان من كلام الصحابة والتابعين أن النفاق والرياء داءان خفيان ينخران أصل الإيمان في القلب، ويقتاتان علىٰ ثمرات العمل حتىٰ يُتركا هشيمًا لا روح فيه ولا صدق معه، فإذا دنا الأجل انكشف ستر المنافق والمُرائي، فتبدّت عاقبته علىٰ قدر سريرته، فمن زرع الرياء حُرم الإخلاص عند الحاجة إليه، ومن تلون قلبه بالنفاق نُزع منه الثبات وقت الفتنة، فكان مآله الافتضاح وسوء الختام.

فاللهم اجعل سرائرنا خيرًا من علانيتنا، واختم لنا بالإيمان والإخلاص والصدق، ونجّنا من النفاق ورياء الناس ما أحييتنا.

إن أسباب سوء الخاتمة كثيرةٌ متشعّبةٌ، تختلف باختلاف القلوب وأحوال العباد، وما هذه الصفحات إلا إشارات إلىٰ بعض أخطرها وأظهرها مما ثبتت به النصوص وتواترت عليه الآثار.

---

(١) "حلية الأولياء" (٦/ ١٤٥).

(٢) "الزهد" للإمام أحمد (ص ٢٧٣)، "حلية الأولياء" (٢/ ٢٨٦).

وقد قصرت الهمّة هنا علىٰ ذكر ما تيسّر من هذه الأسباب الكبرىٰ، تنبيهًا للغافل، وتذكيرًا للعاقل، لا حصرًا ولا استقصاءً؛ فالباب واسع، والشواهد عليه كثيرة، ولكن حسب المؤمن أن يعرف منها ما يورثه الخوف ويحفزه إلىٰ تصحيح التوبة وتجديد الإخلاص وتفقد القلب قبل أن يأتيه الأجل بغتة.

فاللهم احفظنا من أسباب الخذلان، ونجِّنا من طرق سوء الخاتمة، واختم لنا بخيرٍ ما بقي من أعمارنا، إنك وليُّ ذلك والقادر عليه.

خوف السلف من سوء الخاتمة

إن من أبرز سمات أهل السنة والجماعة ـ وخاصة سلف هذه الأمة من الصحابة ومن تبعهم بإحسان ـ شدة خوفهم من سوء الخاتمة، مهما بلغت عبادتهم ومكانتهم وعلمهم وزهدهم. فقد علموا أن الأعمال بالخواتيم، وأن القلب قد ينقلب إن لم يثبّته الله، فظلّوا بين الخوف والرجاء، يعملون صالحًا ويرجون القبول، ويخشون الذنوب ويخافون أن تحبط أعمالهم أو تحجبهم عن حُسن الخاتمة.

وقد نقلت آثار كثيرة عنهم تُظهر مدىٰ خوفهم وتوجسهم من أن يُختم لهم بغير الخير، فهذا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «لو أن لي طلاع الأرض ذهبًا لافتديت به من هول المطلع». وكان كثير منهم إذا ذُكر الموت أو القبر تغيّر لونه وارتعد قلبه. وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كونوا لقبول العمل أشد اهتمامًا منكم بالعمل، ألم تسمعوا الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ٢٧﴾ [المائدة:٢٧]».

وكان بعض السلف يبكي عند موته ويقول: «ليت شعري من أي الدارين يكون المصير؟».

وقال سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما أبكاني مثل خوف سوء الخاتمة».

ومما زاد خوفهم علمهم أن القلب يتقلب، وأن العبد قد يعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، حتىٰ لا يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ـ والعياذ بالله ـ كما ثبت في الحديث الصحيح. فكانوا يكثرون الدعاء: «اللهم ثبتنا عند الموت، اللهم اختم لنا بخير».

ولذلك كانت حياتهم كلها حذرًا وحرصًا، لا يغترّون بكثرة العبادات، ولا يمدحون أنفسهم، بل يدعون الله دائمًا أن يطهّر أعمالهم وينير قلوبهم ويصرف عنهم الفتن، خوفًا من الزلل عند الفتنة، أو الانقلاب عند ساعة الاحتضار، فكم من مغرور بعمله انقطع عن الله في آخر عمره وخاب وخسر.

فكان خوفهم من سوء الخاتمة علامة صدق، وزادًا للاستقامة، وحافزًا للتوبة والإنابة ومحاسبة النفس، حتىٰ لقي الله أكثرهم بقلوب سليمة عامرة بالإيمان، نحسبهم كذلك والله حسيبهم.

۞ أبو بكر الصديق رضي الله عنه يقول:

«وددت أني شعرة في جنب عبد مؤمن، ذكره أحمد عنه».

وذكر عنه أيضًا أنه كان يمسك بلسانه ويقول: «هذا الذي أوردني الموارد، وكان يبكي كثيرًا، ويقول: ابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا».

وكان إذا قام إلىٰ الصلاة كأنه عود من خشية الله عز وجل.

وأتىٰ بطائر فقلبه ثم قال: «ما صيد من صيد، ولا قطعت شجرة من شجرة،

إلا بما ضيعت من التسبيح، فلما احتضر، قال لعائشة: يا بنية، إني أصبت من مال المسلمين هذه العباءة وهذه الحلاب وهذا العبد، فأسرعي به إلىٰ ابن الخطاب، وقال: والله لوددت أني كنت هذه الشجرة تؤكل وتعضد».

وقال قتادة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: بلغني أن أبا بكر قال: «ليتني خضرة تأكلني الدواب»(١).

عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

قرأ سورة الطور إلىٰ أن بلغ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾ [الطور:٧]، فبكىٰ واشتد بكاؤه حتىٰ مرض وعادوه.

وقال لابنه وهو في الموت: «ويحك ضع خدي علىٰ الأرض عساه أن يرحمني، ثم قال: ويل أمي، إن لم يغفر لي (ثلاثا)، ثم قضي».

وكان يمر بالآية في ورده بالليل فتخيفه، فيبقىٰ في البيت أيامًا يعاد، يحسبونه مريضًا، وكان في وجهه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ خطان أسودان من البكاء.

وقال له ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: مصر الله بك الأمصار، وفتح بك الفتوح، وفعل، فقال:« وددت أني أنجو لا أجر ولا وزر»(٢).

---

(١) "الزهد" للإمام أحمد بن حنبل (ص: ٧٥)، "حلية الأولياء" لأبي نعيم (١/ ٣٠).

(٢) "الطبقات الكبرىٰ" لابن سعد (٣/ ٣٤٨)، "سير أعلام النبلاء" للذهبي (٢/ ٣٧٢).

❁ عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

كان إذا وقف علىٰ القبر يبكي حتىٰ تبل لحيته، وقال: «لو أنني بين الجنة والنار لا أدري إلىٰ أيتهما يؤمر بي، لاخترت أن أكون رمادا قبل أن أعلم إلىٰ أيتهما أصير»(١).

❁ علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

وبكاؤه وخوفه، وكان يشتد خوفه من اثنتين: طول الأمل، واتباع الهوىٰ، قال: فأما طول الأمل فينسي الآخرة، وأما اتباع الهوىٰ فيصد عن الحق، ألا وإن الدنيا قد ولت مدبرة، والآخرة مقبلة، ولكل واحدة بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدا حساب ولا عمل»(٢).

❁ أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يقول:

«إن أشد ما أخاف علىٰ نفسي يوم القيامة أن يقال لي: يا أبا الدرداء، قد علمت، فكيف عملت فيما علمت ؟ وكان يقول: لو تعلمون ما أنتم لاقون بعد

(١) "الطبقات الكبرىٰ" لابن سعد (٣/ ٦٩)، "سير أعلام النبلاء" للذهبي (٢/ ٥٧١).

(٢) "مصنف ابن أبي شيبة" كتاب الزهد، باب ما ذكر علي بن أبي طالب، رقم الأثر: (٣٥٤٩١).

الموت لما أكلتم طعاما علىٰ شهوة، ولا شربتم شرابا علىٰ شهوة، ولا دخلتم بيتا تستظلون فيه، ولخرجتم إلىٰ الصعدات تضربون صدوركم، وتبكون علىٰ أنفسكم، ولوددت أني شجرة تعضد ثم تؤكل»(١).

❁ عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

عنْ أَبِي مَعْشَرٍ، قَالَ: «كَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ إِذَا ذَكَرَ الْمَوْتَ اسْتَعْبَرَ حَتَّىٰ تَرَىٰ أَسْفَلَ عَيْنَيْهِ مِثْلَ الشِّرَاكِ الْبَالِي مِنَ الدُّمُوعِ»(٢).

وأخرجه ابن سعد في "الطبقات الكبرىٰ" (٤/ ١٣٨) باختلاف يسير في اللفظ: «وكان ابن عباس وكان أبو ذر يقول: يا ليتني كنت شجرة تعضد، ووددت أني لم أخلق وعرضت عليه النفقة، فقال: ما عندنا عنز نحلبها وحمر ننقل عليها، ومحرر يخدمنا، وفضل عباءة، وإني أخاف الحساب فيها».

❁ تميم الداري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

عَنْ شُرَحْبِيلَ بْنِ السِّمْطِ، قَالَ: كَانَ تَمِيمٌ الدَّارِيُّ يَقْرَأُ الْجَاثِيَةَ، فَلَمَّا بَلَغَ: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الجاثية:٢١]، جَعَلَ يُرَدِّدُهَا حَتَّىٰ أَصْبَحَ(٣).

---

(١) "الزهد" للإمام أحمد (ص: ٢٢١).

(٢) "مصنف ابن أبي شيبة" "الزهد"، رقم الأثر: (٣٥١٧٤).

(٣) ذكره أبو نعيم في "حلية الأولياء" (١/ ١٨٦).

وقال أبو عبيدة عامر بن الجراح: وددت أني كبش فذبحني أهلي، وأكلوا لحمي وحسوا مرقي.

وهذا باب يطول تتبعه ![1].

❁ أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

لما حضرت أبا هريرة الوفاة بكىٰ فقيل له ما يبكيك؟ فقال: «بعد المفازة وقلة الزاد وعقبة كؤود، المهبط منها إلىٰ الجنة أو النار»[2].

قلت: هذا مقال أكثر الصحابة ملازمة للنبي وأكثرهم رواية لحديثه! فكيف حالنا وما مقالنا عند الاحتضار!

أسأل الله أن يلطف بنا، ويرحمنا، وأن يصلح أحوالنا ومآلنا.

❁ حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

قيل لأبي مسعود الأنصاري: ماذا قال حذيفة عند موته؟ قال: لما كان عند السحر، قال: «أعوذ بالله من صباح إلىٰ النار - ثلاثا -»، ثم قال: «اشتروا لي ثوبين أبيضين؛ فإنهما لن يتركا علي إلا قليلا حتىٰ أبدل بهما خيرًا منهما، أو

(١) «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي» (ص ٤٠).

(٢) «صفة الصفوة» (١/ ٦٩٤).

أسلبهما سلبا قبيحا»[١].

❁ أبو بكر الصديق أيضا جاء عنه

أنه لما احتضر رضي الله عنه وأرضاه حين وفاته قال: «و جاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد»، وقال لعائشة: «انظروا ثوبي هذين، فاغسلوهما و كفنوني فيهما، فإن الحي أولىٰ بالجديد من الميت».

و لما حضرته الوفاة أوصىٰ عمر رضي الله عنه قائلا: «إني أوصيك بوصية، إن أنت قبلت عني: إن لله عز و جل حقًا بالليل لا يقبله بالنهار، و إن لله حقًا بالنهار لا يقبله بالليل، و إنه لا يقبل النافلة حتىٰ تؤدىٰ الفريضة، و إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه في الآخرة بإتباعهم الحق في الدنيا، و ثقلت ذلك عليهم، و حق لميزان يوضع فيه الحق أن يكون ثقيلًا، و إنما خفت موازين من خفت موازينه في الآخرة باتباعهم الباطل، و خفته عليهم في الدنيا و حق لميزان أن يوضع فيه الباطل أن يكون خفيفا» [٢].

---

(١) "سير أعلام النبلاء" (٢/ ٣٦٨).

(٢)أخرجه عبد الرزاق الصنعاني في "المصنف" مصنف عبد الرزاق، رقم الأثر: (٦٦٧٥)، وأخرجه ابن سعد في "الطبقات الكبرىٰ" (٣/ ٣٧٣)، وذكره ابن الجوزي في "صفة الصفوة" (١/ ٢٨٥). وأورده ابن كثير في "البداية والنهاية"

عمر رضي الله عنه:

ولما طعن عمر.. جاء عبدالله بن عباس، فقال: يا أمير المؤمنين، أسلمت حين كفر الناس، و جاهدت مع رسول الله صلىٰ الله عليه و سلم حين خذله الناس، و قتلت شهيدا و لم يختلف عليك اثنان، و توفي رسول الله صلىٰ الله عليه و سلم و هو عنك راض.

فقال له: أعد مقالتك فأعاد عليه، فقال: «المغرور من غررتموه، و الله لو أن لي ما طلعت عليه الشمس أو غربت لافتديت به من هول المطلع».

و قال عبدالله بن عمر: كان رأس عمر علىٰ فخذي في مرضه الذي مات فيه.

فقال: ضع رأسي علىٰ الأرض، فقلت: ما عليك كان علىٰ الأرض أو كان علىٰ فخذي؟! فقال: لا أم لك، ضعه علىٰ الأرض، فقال عبدالله: فوضعته علىٰ الأرض، فقال: ويلي وويل أمي إن لم يرحمني ربي عز و جل»[1].

أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه

(٧/ ١٥٠) بنحوه، وذكره الذهبي أيضًا في "سير أعلام النبلاء" (٢/ ٤٢٨).

(١) أورده ابن كثير في "البداية والنهاية" (٧/ ١٤٩-١٥٠)، وذكره ابن الجوزي في "صفة الصفوة" (١/ ٢٨٤-٢٨٥)، ونقله الذهبي في "سير أعلام النبلاء" (٢/ ٤٢٧-٤٢٨).

قال حين طعنه الغادرون و الدماء تسيل علىٰ لحيته: «لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، اللهم إني أستهديك و أستعينك علىٰ جميع أموري و أسألك الصبر علىٰ بليتي».

ولما استشهد فتشوا خزائنه فوجدوا فيها صندوقا مقفلا، ففتحوه فوجدوا فيه ورقة مكتوبا عليها (هذه وصية عثمان).

«بسم الله الرحمن الرحيم.

عثمان بن عفان يشهد أن لا إله إلا الله و حده لا شريك له و أن محمدًا عبده و رسوله و أن الجنة حق، و أن الله يبعث من في القبور ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد، عليها يحيا و عليها يموت و عليها يبعث إن شاء الله»[1].

أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

بعد أن طعن علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «ما فعل بضاربي؟ قالو: أخذناه، قال: أطعموه من طعامي، و اسقوه من شرابي، فإن أنا عشت رأيت فيه رأيي، و إن أنا مت

---

(١) أورده ابن كثير في "البداية والنهاية" (٧/ ٢٠٣) بنحوه في سياق أحداث قتله، وذكره الذهبي في "سير أعلام النبلاء" (٢/ ١٦٤–١٦٥)، ونقله ابن الأثير في "الكامل في التاريخ" (٣/ ٨٩)، وذكره ابن كثير أيضًا في الفصول في "السيرة ملخصًا".

فاضربوه ضربة واحدة لا تزيدوه عليها.

ثم أوصىٰ الحسن أن يغسله و قال: لا تغالي في الكفن فإني سمعت رسول الله صلىٰ الله عليه و سلم يقول: «لا تغالوا في الكفن فإنه يسلب سلبا سريعًا».

و أوصىٰ: امشوا بي بين المشيتين لا تسرعوا بي، و لا تبطئوا، فإن كان خيرًا عجلتموني إليه، و إن كان شرًا ألقيتموني عن أكتافكم».

أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرىٰ (٣/ ٢٦) قال: أخبرنا إسماعيل بن إبراهيم عن أيوب عن محمد (وهو ابن سيرين) قال: لما ضُرب علي أُتيَ بابن ملجم فقال: «أطعموه واسقوه وأحسنوا إساره، فإن أعِش فالجروح قصاص، وإن أمتُ فاقتلوه قتلةً ولا تُمثلوا به»[١].

۞ لما حضرت معاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الوفاة قال:

«اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب البقاء في الدنيا لجري الأنهار ولا لغرس الأشجار، ولكن لظمأ الهواجر (الصيام في الحر)، ومكابدة الليل (القيام)،

---

(١) وأخرجه ابن أبي شيبة في "المصنف" (٧/ ٥٤٧ رقم ٣٧٧٠٤) من طريق أيوب عن محمد بن سيرين نحوه، وذكره الطبري في تاريخه (٤/ ١١١) بسنده، وذكره ابن كثير في "البداية والنهاية" (٧/ ٣٢٤) بنحو ذلك، ورواه البلاذري في أنساب الأشراف (٢/ ٣٥١).

ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر».

وفي بعض الروايات: «يا رب إنك تعلم أني كنت أخافك، وإني اليوم أرجوك».

أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٣/ ٤٢٨): قال: أخبرنا يعقوب بن إبراهيم بن سعد عن أبيه عن صالح بن كيسان قال: لما حضر معاذاً الموت قال: «اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب البقاء في الدنيا لجري الأنهار ولا لغرس الأشجار، ولكن لظمأ الهواجر، ومكابدة الليل، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر»[١].

بلال بن رباح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

حينما أتىٰ بلالا الموت...قالت زوجته: وا حزناه..

فكشف الغطاء عن وجهه و هو في سكرات الموت...و قال: «لا تقولي واحزناه، و قولي وا فرحاه»، ثم قال: «غدًا نلقىٰ الأحبة...محمدًا و صحبه»[٢].

---

(١) أورده ابن عبد البر في "الاستيعاب" (٣/ ١٤٠٧)، وذكره ابن كثير في "البداية والنهاية" (٨/ ٧)، وذكره الذهبي في "سير أعلام النبلاء" (١/ ٤٣١). وذكره ابن الجوزي في "صفة الصفوة" (١/ ٢٩٤).

(٢) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرىٰ» (٣/ ٢٤٢).

أبو ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

لما حضرت أبا ذر الوفاة .. بكت زوجته .. فقال: «ما يبكيك؟ قالت: و كيف لا أبكي و أنت تموت بأرض فلاة و ليس معنا ثوب يسعك كفنا...فقال لها: لا تبكي وأبشري فقد سمعت النبي صلىٰ الله عليه و سلم يقول لنفر أنا منهم: «ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض يشهده عصابة من المؤمنين و ليس من أولئك النفر أحد إلا ومات في قرية و جماعة، و أنا الذي أموت بفلاة، و الله ما كذبت و لا كذبت فانظري الطريق»، قالت: أنىٰ و قد ذهب الحاج و تقطعت الطريق، فقال انظري فإذا أنا برجال فألحت ثوبي فأسرعوا إلي فقالوا: ما لك يا أمة الله؟ قالت: امرؤ من المسلمين تكفونه .. فقالوا: من هو؟ قالت: أبو ذر قالوا: صاحب رسول الله ﷺ ففدوه بآبائهم و أمهاتهم و دخلوا عليه فبشرهم و ذكر لهم الحديث، وقال: أنشدكم بالله، لا يكفنني أحد كان أميرًا أو عريفًا أو بريدًا، فكل القوم كانوا نالوا من ذلك شيئا غير فتىٰ من الأنصار فكفنه في ثوبين لذلك الفتىٰ و صلىٰ عليه عبدالله بن مسعود فكان في ذلك القوم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم أجمعين»[1].

---

(١) "الطبقات الكبرىٰ" لابن سعد (٤/ ٢٢٧–٢٢٨)، "تاريخ الطبري" (٤/ ٢٤٧)، "سير أعلام النبلاء" للذهبي (٢/ ٦٩–٧٠)، "البداية والنهاية" لابن كثير

۞ الصحابي الجليل أبو الدرداء رضي الله عنه

لما جاء أبا الدرداء الموت ... قال: «ألا رجل يعمل لمثل مصرعي هذا ؟ ألا رجل يعمل لمثل يومي هذا؟ ألا رجل يعمل لمثل ساعتي هذه؟ ثم قبض رحمه الله»[(١)].

۞ سلمان الفارسي رضي الله عنه

بكىٰ سلمان الفارسي عند موته، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: عهد إلينا رسول الله صلىٰ الله عليه و سلم أن يكون زاد أحدنا كزاد الراكب، و حولي هذه الأزواد، و قيل: إنما كان حوله إجانة و جفنة و مطهرة!.

الإجانة: إناء يجمع فيه الماء.

الجفنة: القصعة يوضع فيها الماء و الطعام.

المطهرة: إناء يتطهر فيه[(٢)].

(٧/ ٢٠٧–٢٠٨)، "الإصابة" لابن حجر (٤/ ٦٢–٦٣)، "الاستيعاب" لابن عبد البر (٤/ ١٦٦٤).

(١) أورده ابن عبد البر في "الاستيعاب" (٤/ ١٦٢٨) بنحوه في ترجمته.

وذكره الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (٢/ ٣٤٩–٣٥٠) «مختصرًا».

(٢) "مصنف ابن أبي شيبة" (٧/ ٩٥) رقم الأثر: (٣٤٤٦١). ذكره ابن عبد البر في

﷉ الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

لما حضر عبدالله بن مسعود الموت دعا ابنه فقال: يا عبدالرحمن بن عبدالله بن مسعود، إني أوصيك بخمس خصال، فأحفظهن عني: أظهر اليأس للناس، فإن ذلك غنىً فاضل، ودع مطلب الحاجات إلىٰ الناس، فإن ذلك فقر حاضر، و دع ما تعتذر منه من الأمور، و لا تعمل به، و إن استطعت ألا يأتي عليك يوم إلا و أنت خير منك بالأمس، فافعل، و إذا صليت صلاة فصل صلاة مودع، كأنك لا تصلي بعدها.

﷉ الحسن بن علي سبط رسول الله و سيد شباب أهل الجنة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

لما حضر الموت بالحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: أخرجوا فراشي إلىٰ صحن الدار، فأخرج فقال: اللهم إني أحتسب نفسي عندك، فإني لم أصب بمثلها![1].

﷉ الصحابي الجليل معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

قال معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند موته لمن حوله: «أجلسوني .. فأجلسوه .. فجلس

"الاستيعاب" (٢/ ٦٢٢–٦٢٣)، ذكره الذهبي في "سير أعلام النبلاء" (١/ ٥٥٣–٥٥٤).

وأورده ابن كثير في البداية والنهاية (٧/ ١٢٨).

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/ ٩٦)، رقم الأثر: (٣٤٤٦٧).

يذكر الله ..، ثم بكىٰ .. و قال: الآن يا معاوية .. جئت تذكر ربك بعد الانحطام و الانهدام ..، أما كان هذا و غض الشباب نضير ريان؟! ثم بكىٰ وقال: يا رب، يا رب، ارحم الشيخ العاصي ذا القلب القاسي .. اللهم أقل العثرة و اغفر الزلة .. و جد بحلمك علىٰ من لم يرج غيرك و لا وثق بأحد سواك ... ثم فاضت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ»[١].

الصحابي الجليل عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

حينما حضر عمرو بن العاص الموت .. بكىٰ طويلا .. و حول وجهه إلىٰ الجدار، فقال له ابنه: «ما يبكيك يا أبتاه ؟ أما بشرك رسول الله...فأقبل عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إليهم بوجهه و قال: إن أفضل ما نعد ... شهادة أن لا إله إلا الله، و أن محمدا رسول الله .. إني كنت علىٰ أطباق ثلاث ..

لقد رأيتني و ما أحد أشد بغضا لرسول الله صلىٰ الله عليه و سلم مني، و لا أحب إلىٰ أن أكون قد استمكنت منه فقتلته، فلو مت علىٰ تلك الحال لكنت من أهل النار...فلما جعل الله الإسلام في قلبي، أتيت النبي صلىٰ الله عليه و سلم فقلت: ابسط يمينك فلأبايعنك، فبسط يمينه، قال: فقضبت يدي .. فقال: ما لك يا عمرو؟ قلت: أردت أن أشترط، فقال: تشترط ماذا؟ قلت: أن يغفر لي، فقال:

---

(١) "الطبقات الكبرىٰ" (٨-٦٤-٦٥).

أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، و أن الهجرة تهدم ما كان قبلها، و أن الحج يهدم ما كان قبله؟ و ما كان أحد أحب إلي من رسول الله صلىٰ الله عليه و سلم و لا أحلىٰ في عيني منه، و ما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالا له، و لو قيل لي صفه لما استطعت أن أصفه، لأني لم أكن أملأ عيني منه، و لو مت علىٰ تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة، ثم ولينا أشياء، ما أدري ما حالي فيها ؟ فإذا أنا مت فلا تصحبني نائحة و لا نار، فإذا دفنتموني فسنوا علي التراب سنا ثم أقيموا حول قبري قدر ما تنحر جزور و يقسم لحمها، حتىٰ أستأنس بكم، و أنظر ماذا أراجع به رسل ربي؟»[١].

الصحابي الجليل أبو موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

لما حضرت أبا موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الوفاة، دعا فتيانه، و قال لهم: «اذهبوا فاحفروا لي و أعمقوا... ففعلوا ... فقال: اجلسوا بي، فو الذي نفسي بيده إنها لإحدىٰ المنزلتين، إما ليوسعن قبري حتىٰ تكون كل زاوية أربعين ذراعا، و ليفتحن لي باب من أبواب الجنة، فلأنظرن إلىٰ منزلي فيها و إلىٰ أزواجي، و إلىٰ ما أعد الله عز و جل لي فيها من النعيم، ثم لأنا أهدىٰ إلىٰ منزلي في الجنة مني اليوم إلىٰ أهلي، و ليصيبني من روحها و ريحانها حتىٰ أبعث.

---

(١) أخرجه مسلم رقم: (١٢١).

و إن كانت الأخرىٰ ليضيقن علي قبري حتىٰ تختلف منه أضلاعي، حتىٰ يكون أضيق من كذا و كذا، و ليفتحن لي باب من أبواب جهنم، فلأنظرن إلىٰ مقعدي و إلىٰ ما أعد الله عز و جل فيها من السلاسل و الأغلال و القرناء، ثم لأنا إلىٰ مقعدي من جهنم لأهدىٰ مني اليوم إلىٰ منزلي، ثم ليصيبني من سمومها و حميمها حتىٰ أبعث»[(١)].

وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٢٨٥) بإسناد عن عبد الله بن بريدة قال: «لما حضرت أبا موسىٰ الوفاة قال لفتيانه: «اذهبوا فاحفروا لي...» فذكره[(٢)].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في "حلية الأولياء" (١/ ٢٥٨) من طريق الحسن البصري عنه مرسلاً.

(٢) أورده الذهبي في "سير أعلام النبلاء" (٢/ ٣٩٤) وقال: إسناده حسن.

سعد بن الربيع رحمه الله

لما انتهت غزوة أحد .. قال رسول الله صلىٰ الله عليه و سلم: من يذهب فينظر ماذا فعل سعد بن الربيع؟ فدار رجل من الصحابة بين القتلىٰ .. فأبصره سعد بن الربيع قبل أن تفيض روحه .. فناداه..: ماذا تفع ؟ فقال: إن رسول الله صلىٰ الله عليه و سلم بعثني لأنظر ماذا فعلت؟ فقال سعد: اقرأ علىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه و سلم مني السلام و أخبره أني ميت و أني قد طعنت اثنتي عشرة طعنة و أنفذت في، فأنا هالك لا محالة، و اقرأ علىٰ قومي من السلام و قل لهم .. يا قوم .. لا عذر لكم إن خلص إلىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه و سلم و فيكم عين تطرف[١].

---

(١) أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (٦/ ٢٦٥) من طريق محمد بن إسحاق، عن عاصم بن عمر بن قتادة، عن عبد الله بن عبد الله بن جابر بن عتيك، عن أبيه، والبيهقي في "دلائل النبوة" (٣/ ٢٤٧)، ابن إسحاق في "السيرة" كما في "سيرة ابن هشام" (٣/ ٥٣)، وأورده ابن كثير في "البداية والنهاية" (٤/ ٣٠) وساقه من طريق ابن إسحاق، وأشار إليه ابن حجر في "الإصابة" (٣/ ٣٣).

عبدالله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

قال عبدالله بن عمر قبل أن تفيض روحه: ما آسىٰ من الدنيا علىٰ شيء إلا علىٰ ثلاثة: ظمأ الهواجر، ومكابدة الليل، و مراوحة الأقدام بالقيام لله عز وجل، وأني لم أقاتل الفئة الباغية التي نزلت (و لعله يقصد الحجاج و من معه)(١).

عبادة بن الصامت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

لما حضرت عبادة بن الصامت الوفاة، قال: أخرجوا فراشي إلىٰ الصحن، ثم قال: اجمعوا لي موالي و خدمي و جيراني و من كان يدخل علي، فجمعوا له ... فقال: إن يومي هذا لا أراه إلا آخر يوم يأتي علي من الدنيا، و أول ليلة من الآخرة، و إنه لا أدري لعله قد فرط مني إليكم بيدي أو بلساني شيء، و هو والذي نفس عبادة بيده، القصاص يوم القيامة، و أحرج علىٰ أحد منكم في نفسه شيء من ذلك إلا اقتص مني قبل أن تخرج نفسي، فقالوا: بل كنت والدًا وكنت مُؤدبا، فقال: أغفرتم لي ما كان من ذلك؟ قالوا: نعم، فقال: اللهم اشهد... أما الآن فاحفظوا وصيتي ... أُحرج علىٰ كل إنسان منكم أن يبكي، فإذا خرجت نفسي فتوضئوا فأحسنوا الوضوء، ثم ليدخل كل إنسان منكم مسجدًا فيصلي ثم يستغفر لعبادة و لنفسه، فإن الله عز و جل قال: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ

---

(١) أخرجه ابن سعد في "الطبقات الكبرىٰ" (٤/ ١٨٨).

﴿وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ٤٥﴾ [البقرة:٤٥]... ثم أسرعوا بي إلىٰ حفرتي، و لا تتبعوني بنار[١].

الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ

دخل المزني علىٰ الإمام الشافعي في مرضه الذي توفي فيه فقال له: كيف أصبحت يا أبا عبدالله؟! فقال الشافعي: أصبحت من الدنيا راحلًا، و للإخوان مفارقًا، و لسوء عملي ملاقيًا، و لكأس المنية شاربًا، و علىٰ الله واردًا، ولا أدري أروحي تصير إلىٰ الجنة فأهنيها، أم إلىٰ النار فأعزيها، ثم أنشأ يقول:

ولما قسا قلبي و ضاقت مذاهبي ... جعلت رجائي نحو عفوك سلما
تعاظمني ذنبي فلما قرنته ... بعفوك ربي كان عفوك أعظما
فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل ... تجود و تعفو منة و تكرما[٢]

(١) أورده ابن عساكر في "تاريخ دمشق" (ج٣٨/ ص٧) من طريق زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار مثله، أورده الذهبي في "سير أعلام النبلاء" (٢/ ١٧) مختصرًا وقال: وهو من جميل مواقف الصحابة، وأورده ابن الأثير في "أسد الغابة" (٣/ ٣٣٨) مختصراً.

(٢) أورده ابن كثير في "البداية والنهاية" (١٠/ ٣٣٦) بدون إسناد، ضمن ترجمة الشافعي، و ابن خلكان في "وفيات الأعيان" (٢/ ٤٦٩) وقال: هو مما يُحكىٰ

❁ الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ

حينما حضرت الحسن البصري المنية حرك يديه و قال: هذه منزلة صبر واستسلام![١].

❁ عبدالله بن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ

العالم العابد الزاهد المجاهد عبدالله بن المبارك، حينما جاءته الوفاة اشتدت عليه سكرات الموت ثم أفاق .. و رفع الغطاء عن وجهه و ابتسم قائلا: لمثل هذا فليعمل العاملون ...لا إله إلا الله ... ثم فاضت روحه[٢].

❁ الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ

العالم العابد الفضيل بن عياض الشهير بعابد الحرمين لما حضرته الوفاة، غشي عليه، ثم أفاق و قال: وا بعد سفراه ... وا قلة زاداه ...![٣].

عنه، والذهبي في "سير أعلام النبلاء" (١٠/ ٨٨) ملحقًا بترجمته، وذكر الأبيات ضمن مناقبه، و السبكي في "طبقات الشافعية الكبرىٰ" (٢/ ٢٦٧) في ترجمة الشافعي.

(١) أورده أبو نعيم الأصبهاني في «حلية الأولياء» (٢/ ١٥٦).

(٢) «الحلية» لأبي نعيم (٨/ ١٦٧).

(٣) أورده ابن الجوزي في «صفة الصفوة» (٤/ ٩٧).

وعن الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ ورد عنه أنه كان يقول عند موته: «وا أسفاه من قلة الزاد وبعد السفر»[١].

«إنما يجزع من النار غدًا من عصىٰ الله اليوم»، وقيل: بكىٰ وقال: «ويحك يا فضيل! قد كنت تقول كذا وكذا».

❖ سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ

ورد عنه قريب من ذلك عند موته، كما في حلية الأولياء (٧/ ٣٤): «بكىٰ سفيان عند موته، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: أبكي علىٰ تفريطي في الأيام الخالية».

لكنه ليس بنفس النص الذي أوردته، بل قريب في المعنىٰ.

❖ إبراهيم التيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ

قال إبراهيم التيمي: مثلت نفسي في الجنة آكل من ثمارها وأشرب من أنهارها، ثم مثلت نفسي في النار آكل من زقومها وأشرب من صديدها، فقلت لنفسي: يا نفس، أي شيء تريدين؟ قالت: أريد أن أرجع إلىٰ الدنيا فأعمل صالحًا، قلت: فأنت في الأمنية فاعملي»[٢].

---

(١) "حلية الأولياء" (٨/ ١٠٩).

(٢) "حلية الأولياء" (٤/ ٢١٠)

الخليفة العادل الزاهد عمر بن عبدالعزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ

لما حضر الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز الموت قال لبنيه و كان مسلمة بن عبدالملك حاضرا: يا بني، إني قد تركت لكم خيرا كثيرا لا تمرون بأحد من المسلمين و أهل ذمتهم إلا رأو لكم حقا.

يا بني! إني قد خيرت بين أمرين، إما أن تستغنوا و أدخل النار، أو تفتقروا و أدخل الجنة، فأرىٰ أن تفتقروا إلىٰ ذلك أحب إلي، قوموا عصمكم الله ... قوموا رزقكم الله ... قوموا عني، فإني أرىٰ خلقًا ما يزدادون إلا كثرة، ما هم بجن و لا إنس ...

قال مسلمة: فقمنا و تركناه، و تنحينا عنه، و سمعنا قائلا يقول: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًاۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص:٨٣]، ثم خفت الصوت، فقمنا فدخلنا، فإذا هو ميت مغمض مسجىٰ![1].

---

(١) أورده أبو نعيم في "حلية الأولياء" (٥/ ٢٩٧) من رواية الأوزاعي أيضًا عن عمر بن عبد العزيز نحوه، وأورده ابن كثير في "البداية والنهاية" (٩/ ٢٠٤) مختصرًا، وأورده الذهبي في "سير أعلام النبلاء" (٥/ ١٤٥) ضمن ترجمته بنفس المعنىٰ.

الخليفة المأمون أمير المؤمنين رَحِمَهُ اللَّهُ.

حينما حضر المأمون الموت قال: أنزلوني من علىٰ السرير، فأنزلوه علىٰ الأرض ... فوضع خده علىٰ التراب و قال: يا من لا يزول ملكه ... ارحم من قد زال ملكه ...![١].

عبد الملك بن مروان رَحِمَهُ اللَّهُ

يروىٰ أن عبدالملك بن مروان لما أحس بالموت قال: ارفعوني علىٰ شرف، ففعل ذلك، فتنسم الروح، ثم قال: يا دنيا ما أطيبك! إن طويلك لقصير ... وإن كثيرك لحقير ... و إن كنا منك لفي غرور ...![٢].

هشام بن عبد الملك رَحِمَهُ اللَّهُ

لما أحتضر هشام بن عبدالملك، نظر إلىٰ أهله يبكون حوله فقال: جاء هشام إليكم بالدنيا و جئتم له بالبكاء، ترك لكم ما جمع و تركتم له ما حمل، ما أعظم مصيبة هشام إن لم يرحمه الله[٣].

أمير المؤمنين الخليفة المعتصم رَحِمَهُ اللَّهُ

(١) أورده المسعودي في "مروج الذهب" (٤/ ٨٢).

(٢) أورده ابن خلكان في "وفيات الأعيان" (٣/ ٣٧٤).

(٣) "البداية والنهاية" (٩/ ١٩٨).

قال المعتصم عند موته: لو علمت أن عمري قصير هكذا ما فعلت ما فعلت![(١)].

۞ هارون الرشيد رَحِمَهُ اللَّهُ

أمير المؤمنين الخليفة الزاهد المجاهد هارون الرشيد رَحِمَهُ اللَّهُ لما مرض هارون الرشيد و يئس الأطباء من شفائه ... و أحس بدنو أجله .. قال: أحضروا لي أكفانا فأحضروا له ..فقال: احفروا لي قبرًا ... فحفروا له ... فنظر إلىٰ القبر و قال: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾ [الحاقة:٢٨-٢٩][(٢)].

۞ حبيب الكوفي رَحِمَهُ اللَّهُ

عن عبد الواحد بن زيد: أن حبيبا أبا محمد جزع جزعًا شديدًا عند الموت؛ فجعل يقول بالفارسية: أريد أن أسافر سفرًا ما سافرته قط، أريد أن أسلك طريقًا ما سلكته قط، أريد أن أزور سيدي ومولاي وما رأيته قط، أريد أن أشرف علىٰ أهوال ما شاهدت مثلها قط، أريد أن أدخل تحت التراب فأبقىٰ تحته إلىٰ يوم القيامة، ثم أوقف بين يدي الله عز وجل فأخاف أن يقول لي: يا حبيب! هات تسبيحة واحدة سبحتني في ستين سنة لم يظفر منك الشيطان فيها بشيء؛

(١) أورده ابن خلكان في "وفيات الأعيان" (٥/ ١٥٤).

(٢) اكتب الحاشية هنا

فماذا أقول وليس لي حيلة؟! أقول: يا رب! هو ذا قد أتيتك مقبوض اليدين إلىٰ عنقي.

قال عبد الواحد: هذا عبد الله ستين سنة مشتغلا به، ولم يشتغل من الدنيا بشيء قط؛ فما يكون حالنا؟! واغوثاه بالله![1].

❁ يونس بن عبيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ

نظر يونس بن عبيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ قدميه عند موته فبكىٰ، فقيل له: ما يبكيك أبا عبد الله، قال: قدماي لم تغبرا في سبيل الله عز وجل[2].

قال سليمان التيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: دخلت علىٰ بعض أصحابنا وهو في النزع، فرأيت من جزعه ما سأني، فقلت له: هذا الجزعُ كُله لماذا؟ وقد كُنت -بحمد الله- علىٰ حالة صالحة؟ فقال: ومالي لا أجزع وما أحقُّ مني بالجزع؟ والله لو أتتني المغفرة من الله -عز وجل- لأهمني الحياءُ منه فيما أفضيت به إليه[3].

❁ نافع رَحِمَهُ ٱللَّهُ

ولما احتضر نافع بكىٰ: فقيل ما يبكيك؟ قال ذكرت سعدًا وضغطة القبر،

(١) "المجالسة وجواهر العلم" (٤/ ٣٩٩).

(٢) "حلية الأولياء" (٣/ ١٩).

(٣) "تسلية أهل المصائب" (ص٨٨).

أي: حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ قال: «إن للقبر ضغطة لو كان أحد ناجيًا منها نجا سعد بن معاذ»[١].

❋ سعيد بن مروان رَحِمَهُ اللَّهُ

لما احتضر سعيد بن مروان قال: يا ليتني لم أكن شيئًا، يا ليتني كهذا الماء الجاري، ثم قال: هاتوا كفني.. أُفٍ لك، ما أقصر طويلك وأقل كثيرك[٢].

❋ معاذ بن جبل رَحِمَهُ اللَّهُ

عن الحسن بن أبي الحسن البصري قال: لما حضرت معاذاً الوفاة فجعل يبكي فقيل له: أتبكي وأنت صاحب رسول الله ﷺ وأنت وأنت؟! فقال: ما أبكي جزعـًا من الموت أن حل بي ولا دنيا تركتها بعدي، ولكن إنما هما القبضتان قبضة في النار وقبضة في الجنة فلا أدري في أي القبضتين أنا[٣].

❋ عمرو بن قيس الملائي رَحِمَهُ اللَّهُ

لما احتضر عمرو بن قيس الملائي رَحِمَهُ اللَّهُ بكىٰ فقال له أصحابه: علىٰ ما تبكي من الدنيا فو الله لقد كنت غضيض؟؟ العيش أيام حياتك، فقال: والله ما أبكي

(١) «السير» (٥/ ٩٩).

(٢) «تاريخ الخلفاء» (١٣٦).

(٣) «شعب الإيمان» (١/ ٥٠٢).

علىٰ الدنيا وإنما أبكي خوفًا من أن أحرم خير الآخرة[١].

عبد الله بن علي رَحِمَهُ ٱللَّهُ

لما حضرت عبد الله بن علي رَحِمَهُ ٱللَّهُ الوفاة: بكىٰ، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: أبكي لتفريطي في الأيام الخالية وقلة عملي للجنة العالية، وما ينجيني من النار الحامية![٢].

---

(١) «شعب الإيمان» (١/ ٥٠٨).

(٢) «العاقبة» (١٣١).

❁ عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ

لما حضرت ابن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ الوفاة قال لنصر مولاه: اجعل رأسي علىٰ التراب، فبكىٰ نصر، فقال له: ما يبكيك ؟ قال: أذكر ما كنت فيه من النعيم، وأنت هو ذا تموت فقيرا غريبا، فقال له: اسكت ؛ فإني سألت الله عز وجل أن يحييني حياة الأغنياء، وأن يميتني ميتة الفقراء . ثم قال له: لقني ولا تعد علي، إلا أن أتكلم بكلام ثان[١].

❁ الأسود بن يزيد رَحِمَهُ اللَّهُ

لما احتضر الأسود بن يزيد رَحِمَهُ اللَّهُ: بكىٰ فقيل له: ما هذا الجزع ؟ قال مالي لا أجزع ومن أحق بذلك مني، والله لو أتيت بالمغفرة من الله عز و جل لهمني الحياء منه مما قد صنعته، إن الرجل ليكون بينه وبين الرجل الذنب الصغير فيعفو عنه فلا يزال مستحيا منه![٢].

قال حذيفة بن اليمان رَحِمَهُ اللَّهُ عند الموت: رب يوم لو أتاني الموت لم أشك، فأما اليوم فقد خالطت أشياء لا أدري علىٰ ما أنا فيها[٣].

---

(١) «المجالسة وجواهر العلم» (٢/ ٢٥٣).

(٢) «حلية الأولياء» (٢/ ١٠٣).

(٣) «حلية الأولياء» (١/ ٢٧٨).

❁ يونس بن عبيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ

قال أحمد بن إبراهيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: نظر يونس بن عبيد إلىٰ قدميه عند موته فبكىٰ، فقيل له: ما يبكيك، أبا عبد الله؟ قال: قدماي لم تغبرا في سبيل الله عز وجل[١].

❁ سليمان التيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ

قال سعيد بن عامر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مرض سليمان التيمي فبكىٰ في مرضه بكاء شديدا، فقيل له: ما يبكيك أتجزع من الموت، قال: لا ولكن مررت علىٰ قدري فسلمت عليه، فأخاف أن يحاسبني ربي عز وجل عليه[٢].

❁ ابراهيم النخعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ

قال زكريا العبدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بكىٰ إبراهيم النخعي في مرضه، فقالوا له: يا أبا عمران، ما يبكيك؟ قال: «وكيف لا أبكي وأنا أنتظر رسولا من ربي يبشرني، إما بهذه، وإما بهذه»[٣].

---

(١) "حلية الأولياء" (٣/ ١٩).

(٢) "حلية الأولياء" (٣/ ٣٢).

(٣) "حلية الأولياء" (٤/ ٢٢٤).

أبو عطية المذبوح رَحِمَهُ ٱللَّهُ

قال حماد بن سعيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لما حضر أبا عطية المذبوح الموت جزع منه، فقالوا له: أتجزع من الموت؟ قال: ما لي لا أجزع، وإنما هي ساعة ثم لا أدري أين يسلك بي[(١)].

عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ

قَالَ السَّرِيِّ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لَمَّا حَضَرَتْ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْوَفَاةُ؛ قَالَ: أَجْلِسُونِي، فأجسلوه، فَقَالَ: إِلَهِي! أَنَا الَّذِي أَمَرْتَنِي فَقَصَّرْتُ، وَنَهَيْتَنِي فَعَصَيْتُ، وَلَكِنْ أَقُولُ: لا إِلَهَ إِلا اللهُ. ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ؛ فَأَبَّدَ النَّظَرَ - أَيْ: مَدَّ بَصَرَهُ - وَقَالَ: إِنِّي لأَرَىٰ حَضَرَةً مَا هِيَ بِإِنْسٍ وَلا جِنٍّ. ثُمَّ قُبِضَ مِنْ سَاعَتِهِ[(٢)].

قال عبد الواحد بن زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: دخلنا علىٰ عطاء السليمي وهو في الموت فنظر إلي أتنفس فقال: ما لك؟ فقلت: من أجلك، فقال: والله لوددت أن نفسي بقيت بين لهاتي وحنجرتي تتردد إلىٰ يوم القيامة مخافة أن تخرج إلىٰ النار .![(٣)].

(١) «تاريخ دمشق» (٣٥/ ٣٥١).

(٢) «المجالسة وجواهر العلم» (٦/ ٥٥)، «حلية الأولياء» (٥/ ٣٣٥)، «سير أعلام النبلاء» (٥/ ١٤١).

(٣) «حلية الأولياء» (٦/ ٢٢٤)، «ميزان الاعتدال» (٣/ ٧٨).

قال يحيىٰ بن آدم رَحِمَهُ اللَّهُ: لما حضرت مسعرا بن كادم، الوفاة دخل عليه سفيان الثوري، فوجده جزعا، فقال له: لم تجزع؟ فو الله لوددت أني مت الساعة، فقال مسعر: أقعدوني، فأعاد عليه سفيان الكلام، فقال: إنك إذا لواثق بعملك يا سفيان، لكني والله لكأني علىٰ شاهق جبل، لا أدري أين أهبط، فبكىٰ سفيان فقال: أنت أخوف لله عز وجل مني[(١)].

قال محمد بن واسع رَحِمَهُ اللَّهُ وهو في الموت: يا إخوتاه! تدرون أين تذهب بي؟ والله الذي لا إله إلا هو إلىٰ النار أو يعفو عني.![(٢)].

۞ الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ

لما حضرته الوفاة قال: «هذه منزلة صبر واستسلام»[(١)].

۞ سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ

لما حضرته الوفاة بكىٰ وقال: «ابكوا عليَّ، لعل الله يرحمني بكم»[(٢)].

۞ الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ

لما حضرته الوفاة غُشي عليه، ثم أفاق فقال: «وابعد سفراه! وا قلة

---

(١) "حلية الأولياء" (٧/ ٢١٢).

(٢) "محاسبة النفس" ص(٣٨).

زاداه!»[٣].

۞ عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ

قال عند موته: «لمثل هذا فليعمل العاملون».

۞ الإمام الشافعي أيضا رَحِمَهُ اللَّهُ

قال في مرضه: «أصبحت من الدنيا راحلًا، وللإخوان مفارقًا، ولسوء عملي ملاقيًا...»[٤].

اللهم اختم بالصالحات أعمالنا، وبلّغنا مما يرضيك آمالنا، وخذ بنواصينا إلىٰ البر والتقوىٰ، ووفّقنا لما تحب وترضىٰ، وثبّتنا عند السؤال، ويسّر لنا الحساب، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا.

---

(١) "حلية الأولياء" (٢/ ١٥٦).

(٢) "حلية الأولياء" (٧/ ٣٤).

(٣) "حلية الأولياء" (٨/ ١٠٩).

(٤) "ابن خلكان وفيات الأعيان" (٢/ ٤٦٩).

قصص وآثار في سوء الخاتمة

الحمد لله مُقلِّب القلوب ومُصرِّف الأبصار، القائل في محكم التنزيل: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [إبراهيم:٢٧]، والصلاة والسلام علىٰ من كان أكثر الناس خشيةً لربه، وأشدهم خوفًا من سوء العاقبة، نبينا محمدٍ ﷺ، وعلىٰ آله وصحبه ومن سار علىٰ هُداه إلىٰ يوم الدين.

أَمَّا بَعدُ:

فيا غافلًا والقبرُ أولُ منازلِه! ويا لاهيًا والدُّنيا تَطوي أعمارَه طَيًّا! ويا متعلِّقًا بزُخرفٍ فانٍ وزائلٍ عما قريب! ألا ما أعجب أمر هذا القلب الذي يلهو ويغفل وكأنه ضامنٌ لحسن الختام!.

إنَّ الحديث عن سوء الخاتمة ليس حديثًا للتخويف المجرد، ولا موضوعًا يُذكَر لزرع اليأس في القلوب، حاشا وكلا، وإنما هو للتنبيه والتحذير، ولإيقاظ القلوب الراكدة، ولإيقاف النفوس التي تجري وراء غرورها قبل أن تُقبَض وهي غارقة في غفلاتها.

ما أكثر من اغترّ بحسن أعماله وظنَّ بنفسه الظنون! فإذا جاءه الموتُ بغتةً كشف له ما خبَّأته صحيفته وأرخىٰ له السترُ فبان المستور، وخاب مَن ظنَّ أن

العبرة بالصورة الظاهرة وحسب!.

كم من عبدٍ أمضىٰ عمره في طاعةٍ ظاهرةٍ وركن إلىٰ نفسه وظنَّ أن قدمه لن تزلّ، فزلَّت في آخر لحظة، وكم من غافلٍ عصىٰ دهرًا طويلًا فرَحِمَهُ اللهُ بلحظة صدق فخُتِم له بالحسنىٰ، فلا مغنيَ عنك اليوم إلا الصدق مع الله والثبات علىٰ الطاعة حتىٰ آخر نَفَس.

يقول الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ: «والله ما خافه إلا مؤمنٌ، ولا أمِنَه إلا منافق» يعني: سوء الخاتمة. وكان السلف يخافون أن تُقبض أرواحهم وهم علىٰ حالٍ لا يُرضي الله، فتُطوىٰ صحائفهم علىٰ حرمان.

كم من شابٍّ هتف لسانه بشهادة الزور ساعة الموت، وكم من قلبٍ انشغل بالغناء والمجون حتىٰ خرجت روحه علىٰ ما كان يهوىٰ ويحب! وقد قال رسول الله ﷺ: «يبعث كلُّ عبدٍ علىٰ ما مات عليه» رواه مسلم، فأيّ خوفٍ أشد من هذا؟!

إنها لحظة فاصلة... عند خروج الروح تتلاشىٰ الألقاب، وتُكشَف السرائر، وتبقىٰ الحقيقة التي عاش المرء عليها في خلوته قبل أن يُظهِرها الله في خاتمته.

يا من تقرأ! تأملْ هذه القصص التي ستمرّ عليك بعد هذه المقدمة، فهي ليست للتسلية، بل لتُحدِّثك عن الذين استهزؤوا بآيات الله، وأعرضوا عن طاعته، حتىٰ إذا حضرتهم الساعة التي لا تقبل فدية ولا رجوعًا، تبرّأ منهم الأهل والولد، وبقيت أعمالهم تحكم عليهم، فانكشفت فضائحهم عند خروج

أرواحهم... فمنهم من زاغ لسانه، ومنهم من سوّد وجهه، ومنهم من فاحت جيفته قبل أن يُوارَىٰ في التراب، ومنهم من طُرِد من المساجد حيًّا وميتًا.

ولئن كانت هذه القصص موجعة، فهي رحمةٌ لمن عقل واعتبر، فما ذُكرت إلا لتردع قلبًا لاهيًا، وتحيي نفسًا موشكةً علىٰ الغرق، وتزرع فيك يقينًا أن سوء الخاتمة لا يُؤمَن مكرُه إلا علىٰ من أمَّنه الله.

فلا تغترّ بعملٍ ولا بعلمٍ ولا بنسبٍ ولا بجاهٍ ولا بحسن هيئة، فما العصمة إلا بتثبيت الله وحده: ﴿أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾ [الإسراء:٧٤].

فيا رب ثبّتنا إذا زلّت الأقدام، ويسّر لنا شهادةً تُرضيك عنا، واختم بالصالحات آجالنا، واجعل خير أعمالنا خواتيمها، وخير أيامنا يوم نلقاك.

وبعد هذه المقدمة -أيها القارئ الكريم- فإني أسوق إليك هذه القصص والآثار علّها تُوقِظ في قلبك خوفًا صادقًا وندمًا عاجلًا قبل فوات الأوان. فاعتبر بها، ولا تكن من الغافلين.

كان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: «لو أن لي طلاع الأرض ذهبًا لافتديت به من هول المطلع»[(١)].

قال قتادة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا﴾ [النحل:٩٢]:

---

(١) "الزهد للإمام" أحمد (ص ٩٢).

«هي امرأة حمقاء كانت تغزل ثم تنقض غزلها. فضرب الله بها مثلاً للمنافق: يعمل العمل ثم ينقضه عند الموت»(١).

كان بكر بن عبد الله المزني رحمه الله يقول: «يا ابن آدم، لو لقيت الله بعمل الثقلين لخفت أن لا تنجو من سوء الخاتمة»(٢).

قال سفيان الثوري رحمه الله: «إني لأخاف أن أُسلَب الإيمان عند الموت»(٣).

وكان يقول: «ما أبكىٰ إلا من سوء الخاتمة»(٤).

وهذا من شدة خوفه من شؤم الذنوب التي قد تحرم صاحبها التثبيت عند خروج الروح.

قال محمد بن واسع رحمه الله: «لو كان للموت توبةٌ بعد نزوله لرجوت، ولكن ليس بعد حضوره توبةٌ ولا عذر، فالله في الخواتيم»(٥).

قال إسحاق بن راهويه رحمه الله: «سمعت بشر بن الحارث يقول: ما أمنت

(١) "تفسير الطبري" (١٤/ ١٦٨).

(٢) "الزهد لوكيع" (٢/ ٣٩٧).

(٣) "سير أعلام النبلاء" (٧/ ٢٦٠).

(٤) "الزهد الكبير" للبيهقي (١/ ٢٠٥).

(٥) "الحلية" (٢/ ٣٤٣).

نفسي أن ينزع الله الإيمان مني عند الموت جزاءً بما ضيعت»[١].

قال عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ: «يا ابن آدم، من أعظم المصائب أن تُختم لك بمعصية وأنت لا تدري!»[٢].

قال عبد الأعلىٰ التيمي رَحِمَهُ اللَّهُ: «من خاف الله عند الدنيا أمَّنه الله من سوء الخاتمة»[٣].

قال طاووس رَحِمَهُ اللَّهُ: «لأن تكون ذنوبٌ في صحيفتي أرجو عفو الله عنها، أحبّ إليّ من أن يكون فيها عملٌ صالحٌ أخاف أن يكون رياءً فيفسد عليَّ يوم أموت»[٤].

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإنَّ خاتمة السوء تكون بسبب دسيسةٍ باطنةٍ للعبد، لا يطَّلع عليها الناس، إمَّا مِن جهة عملٍ سيِّءٍ ونحو ذلك، فتلك الخَصلة الخفيَّة تُوجِب سوءَ الخاتمة عند الموت، وكذلك قد يَعمل الرَّجل عملَ أهل النار، وفي باطِنه خَصلةً خفيَّةً من خِصال الخير، فتغلب عليه تلك الخَصلة في آخِر عمره،

(١) «سير أعلام النبلاء» (٩/ ٣٥٨).

(٢) ذكره ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٢/ ٤٥٦).

(٣) «الزهد الكبير» للبيهقي (١/ ٢٠٠).

(٤) «الحلية» (٤/ ١٠).

فتُوجِب له حُسْنَ الخاتمة»[١]. اهـ.

قال ابن بطَّال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفي تغييب خاتمة العمل عن العبد حكمةٌ بالغة، وتدبيرٌ لطيفٌ؛ لأنه لو علِم وكان ناجيًا أُعْجِبَ وكسل، وإنْ كان هالكًا ازداد عُتُوًّا، فحُجِبَ عنه ذلك؛ ليكون بين الخوف والرجاء»[٢].

قال الحافظ عبد الحق الإشبيلي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولِسوء الخاتمة - أعاذنا اللهُ منها - أسبابٌ، ولها طُرُق وأبواب، وأعظَمُها: الانكباب علىٰ الدنيا وطلبُها، والحرْص عليها، والإعراض عن الآخِرة، والإقدام والجرأة علىٰ معاصي الله، ورُبَّما غَلَبَ علىٰ الإنسان ضَرْبٌ مِن الخطيئة، ونوعٌ مِن المعصية، وجانبٌ مِن الإعراض، ونصيبٌ مِن الجرأة والإقدام، فمَلَكَ قلبَه، وَسَبَىٰ عَقْلَهُ، فربما جاءه الموتُ علىٰ ذلك، وسوءُ الخاتمة لا تكون لِمَن استقام ظاهِرُه، وصلح باطِنُه، ما سمِع بهذا ولا علِمَ، ولله الحمد، وإنما تكون لِمَن له فَسَادٌ في العقيدة، أو إصرارٌ علىٰ الكبيرة، وإقدامٌ علىٰ العظائم، فربما غلَب ذلك عليه حتىٰ نزَل به الموتُ قبْل التوبة»[٣].

قال ابن قُدامةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإذا عرفتَ معنىٰ سوء الخاتمة؛ فاحذرْ أسبابَها، وأَعِدَّ

---

(١) «جامع العلوم والحِكَم» (ص١٧٢-١٧٣).

(٢) «فتح الباري» (١١/ ٣٣٨).

(٣) «الجواب الكافي لِمَن سأل عن الدواء الشافي» (ص١٤٦، ١٤٨).

ما يصلح لها، وإيَّاك والتَّسويف بالاستعداد؛ فإنَّ العمرَ قصيرٌ، وكلَّ نَفَسٍ مِن أنفاسك بمنزلة خاتمتِكَ؛ لأنه يُمْكن أنْ تُخطَف فيه رُوحُكَ، والإنسان يموت علىٰ ما عاش عليه، ويُحْشَرُ علىٰ ما مات عليه»[1].

(١) «مختصَر منهاج القاصدين» (ص٣٩٣).

قصص في سوء الخاتمة قبل الموت

رجل كان يؤذن ثم فتن بالمعازف

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وبلغنا عن رجل كان يؤذن سنين، فصعد يومًا المنارة فقال: والعياذ بالله -الآن أسلم وجهي للهوىٰ- فسقط ميتًا»(١).

قصة من شرب الخمر فمات على الغناء

«قال أبو عبد الله محمد بن شداد: كنا في غزاة لنا فمررنا برجل في خيمة وهو يجود بنفسه، ونحن نسمع عنده صوت غناء ومعازف، فدخلنا عليه فقلنا له: قل لا إله إلا الله، فقال: هو كاذبٌ فيما يقول. ومات علىٰ ذلك»(٢).

من حب الدنيا عند الموت

وَقَالَ ابْنُ سِيرِينَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كَانَ رَجُلٌ يَكْنِسُ الْمَسْجِدَ، فَاحْتُضِرَ فَقِيلَ لَهُ: قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَقَالَ: دِينَارٌ دِينَارٌ حَتَّىٰ مَاتَ»(٣).

---

(١) "ذم الهوىٰ" (ص: ٨٨)، تحقيق أبو عبد الرحمن المصري.

(٢) ابن الجوزي، "ذم الهوىٰ"(ص: ٨٨)، بتحقيق المصري.

(٣) ابن الجوزي، "صيد الخاطر" (ص: ٣٤٧)، طبعة دار القلم.

من تاب ثم رجع ثم مات على حاله

«بلغنا عن شاب كان يجالس قومًا من أهل الخير، ثم تركهم وصحب الفساق، فكان معهم يشرب ويغني فمرض، فجاءه بعض الصالحين فقالوا له: قل لا إله إلا الله، فقال: لا أقولها. فقيل له: لم؟ قال: لأنني بريء منها! ومات علىٰ ذلك»[1].

قصة العابد الذي فتنته المرأة

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: كان في بني إسرائيل راهبٌ تعبد سبعين سنةً، فأتته امرأة فأرادها فوقع عليها، فحملت، فجاءه الشيطان فقال: اقتلها ثم ادفنها، فقتلها ودفنها، فأتىٰ الشيطان أهلها فقال: إن الراهب زنىٰ بفلانة فقتلها ودفنها في موضع كذا وكذا، فاستخرجوه فأتوه به، فصلبوه، فجاءه الشيطان فقال: أنا الذي أوقعتك في هذا، فأطعني أنقذك، اسجد لي سجدة واحدة، فسجد له، فذلك قوله تعالىٰ: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ﴾ [الحشر:١٦]، [الحشر: ١٦]»[2].

---

(١) "سير أعلام النبلاء" (٨/ ٤٠٠)، في ترجمة بشر الحافي.

(٢) "تفسير ابن كثير" (١/ ٢١٧) عند تفسير الآية.

❁ رجل من أهل الكوفة غلبه حب الغناء

قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان رجلٌ من أهل الكوفة يجلس معنا في المسجد ثم تركنا ولزم الغناء، فمرض فدخل عليه بعض أصحابه فقالوا له: قل لا إله إلا الله، فجعل يهذي بالغناء ويقول: تنزلون غداً بدار فلان وتشربون بكذا وتغنون بكذا... حتىٰ مات علىٰ ذلك»(١).

❁ رجلٌ من أهل الأهواء عند موته

قال ابن بطة العكبري رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأخبرنا محمد بن الحسن بن زياد قال: سمعت أحمد بن إبراهيم بن كثير يقول: سمعت يحيىٰ بن معين يقول: دخلنا علىٰ رجل من أصحاب الأهواء وهو يجود بنفسه، فقيل له: قل لا إله إلا الله، فقال: لا أستطيع أن أقولها»(٢).

❁ من كان يُكَذِّب بالقدر فختم له بسوء

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: «حدثني أبي قال: حدثنا إسماعيل بن علية عن أيوب عن أبي قلابة قال: كان رجل يقول: القدر كذا وكذا - يعني ينكره - فأُتي به إلىٰ عمر بن عبد العزيز، فعرض عليه السيف فقال: إني أخاف السيف،

---

(١) أبو بكر الآجري، "تحريم النرد والشطرنج والملاهي" (ص: ٣٨).

(٢) ابن بطة، "الإبانة الكبرىٰ" (٥/ ٢٦٠)، تحقيق د. رضا بن ناصر، دار الراية.

فأمر به فضربت عنقه»[١].

❁ رجلٌ مات ولم يقدر أن ينطق بالشهادة من شدة الغفلة

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «سمعت أبا الفتح بن محمد بن عبد الباقي يقول: كان لي جارٌ في شارع الرومي، فاحتُضِرَ فجعلت ألقنه لا إله إلا الله، فقال: آه آه لا أقدر أقولها، ومات»[٢].

❁ رجلٌ مات وقلبه مع التجارة

قال ابن الجوزي أيضًا: «وَقَالَ بَعْضُهُمْ: كَانَ عِنْدَنَا رَجُلٌ يُصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ وَيُجَالِسُ أَهْلَ الْخَيْرِ، فَمَرِضَ، فَجَعَلَ يَقُولُ: حَانُوتِي! أَقْفَالِي! مَفَاتِيحِي! حَتَّىٰ مَاتَ»[٣].

❁ قصة عمارة بن الوليد بن المغيرة (الجاهلي الذي هلك قبل التوبة)

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكان عمارة بن الوليد بن المغيرة من رجال قريش وأشدهم شهوة، بعثه قومه مع عمرو بن العاص إلىٰ النجاشي في شأن المسلمين، فلما رجع مرّ بمكان فيه أسد فوثب عليه فقتله وافترسه».

---

(١) ابن بطة، "الإبانة الكبرىٰ" (٥/ ٢٧٢)، تحقيق د. رضا بن ناصر.

(٢) ابن الجوزي، "صيد الخاطر" (ص: ٣٤٧)، طبعة دار القلم.

(٣) ابن الجوزي، "صيد الخاطر" (ص: ٣٤٧).

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكان كافرا متهتكـًا»[(١)].

قصة من تمنّى أن يموت على غفلة

قال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال بعضهم: كان رجل يقول: لو أن لي دعوة مستجابة لدعوت أن لا يميتنا الله إلا ونحن سكارىٰ. فمات سكرانـًا»[(٢)].

رجل كان يختم له بسوء بسبب حب الغناء

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وذكروا أن رجلاً حضره الموت فقيل له: قل لا إله إلا الله، فجعل يهذي بالغناء ويقول: تَنَزَّلُونَ غَدًا بِدَارِ كَرِيمَةٍ... إلىٰ أن مات»[(٣)].

رجلٌ كان يُحبُّ اللعب فختم له به

قال بعضهم: «كان رجلٌ ممن يلعب بالشطرنج قد مات، فجعلوا يلقنونه الشهادة فيقول: شاه مات! شاه مات! حتىٰ مات علىٰ ذلك»[(٤)].

رجلٌ كان يسخر من القرآن

«حُكِيَ أَنَّ رَجُلًا قِيلَ لَهُ وَهُوَ فِي سَكَرَاتِ الْمَوْتِ: قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَقَالَ:

(١) «الإصابة في تمييز الصحابة» (٤/ ٥٩٤) في ترجمة عمارة.

(٢) الذهبي، «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٣٧٥)، في ترجمة بشر الحافي.

(٣) «إغاثة اللهفان» (١/ ٤٠٨).

(٤) ابن القيم، «إغاثة اللهفان» (١/ ٤٠٨).

أَيْش أَنْفَعَنِي مِمَّا تَقُولُونَ؟ مَا أُحِبُّ أَنْ أَقُولَهَا! وَمَاتَ».

قال الذهبي رَحِمَهُ اللهُ: «وهذا جزاء من كان يستهزئ بكلام الله أو يستهين به»[١].

قصة من كان يشرب الخمر عند موته

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: «مَرِضَ رَجُلٌ فَقَالُوا لَهُ: قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قَالَ: اشْرَبُوا وَاسْقُونِي كَأْسًا! حَتَّىٰ مَاتَ»[٢].

قصة عن رجلٍ ممن فتنته الدنيا

وَقَالَ أَحَدُهُمْ: «حَضَرْتُ رَجُلًا عِنْدَ الْمَوْتِ، وَهُوَ يَقُولُ: هَذِهِ الْأَرْضُ أَعْطُونِي مِنْهَا كَذَا وَهَذِهِ الدَّارُ هَاتُوا مِنْهَا كَذَا... فَمَا زَالَ يَذْكُرُ الدُّنْيَا حَتَّىٰ مَاتَ»[٣].

رجلٌ ممن عُرف بالبدعة

وَقِيلَ: «إِنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ فَقِيلَ لَهُ: قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَجَعَلَ يَقُولُ: كَذَّبَ النُّحَاةُ، كَذَّبَ النُّحَاةُ! حَتَّىٰ مَاتَ»[٤].

---

(١) كتاب «الكبائر» (ص: ٥٤)، طبعة دار البشائر.

(٢) ابن الجوزي، «ذم الهوىٰ» (ص: ٨٨).

(٣) ابن الجوزي، «صيد الخاطر» (ص: ٣٤٧).

(٤) ابن بطة، «الإبانة الكبرىٰ» (٥/ ٢٦٢).

قصة رأس الجهمية بشر المريسي

قال ابن بطة رَحِمَهُ اللَّهُ: «أخبرنا أحمد بن محمد بن غالب قال: حدثنا محمد بن إسماعيل الوراق قال: سمعت يحيىٰ بن معين يقول: دخلت علىٰ بشر المريسي وهو في الموت، فجعلوا يلقنونه (قل لا إله إلا الله)، فقال: أنا بريء مما يقولون.

قال يحيىٰ: وكان رأس الجهمية»[١].

أحد رؤوس المعتزلة

قال أبو القاسم اللالكائي: «قال عبد الله بن أحمد: سألت أبي عن عمرو بن عبيد فقال: هو من رؤوس المعتزلة.

وبلغني أن عمرو بن عبيد لما احتضر قيل له: قل لا إله إلا الله، فقال: لم أكن لأكذب علىٰ الله»[٢].

زعيم القرامطة (العبيديون)

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما عبيد الله المهدي - رأس العبيديين - فإنه ادعىٰ الإلهية في آخر أمره عند موته»[٣].

(١) «الإبانة الكبرىٰ» (٥/ ٢٦١)، تحقيق د. رضا بن ناصر.

(٢) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (١/ ٢٠٠)، طبعة دار طيبة.

(٣) «البداية والنهاية» (١١/ ٢٢٥)، طبعة هجر.

۞ هلاك أحد رؤوس القدرية

قال ابن أبي عاصم رَحِمَهُ اللَّهُ: «حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة قال: حدثنا أبو أسامة قال: سمعت الأعمش يقول: رأيت رجلاً من القدرية عند الموت فقيل له: قل لا إله إلا الله، فقال: كذبتُ! القدر شيء والشر شيء»[(١)].

۞ هلاك أحد رؤوس المتكلمين

قال الخطيب البغدادي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أخبرنا البرقاني قال: سمعت أبا إسحاق الإسفراييني يقول: سمعت أبا بكر ابن فورك يقول: سمعت الأستاذ أبا إسحاق يقول: بلغني أن أبا المعالي الجويني - إمام الحرمين - لما احتضر قال: يا أصحابنا لا تبتوا إلىٰ الكلام، دعوني أموت علىٰ عقيدة العجائز».

(وإنما ذُكر هذا هنا لأنه قضىٰ عمره في الكلام والفلسفة ثم رجع عند النزع)[(٢)].

۞ هلاك رجل صوفي خرافي

«حكىٰ بعض السلف عن رجل من المتصوفة أنه كان يزعم أنه يرىٰ الله جهرة ويكلمه، فكان يقول عند موته: خذوني إلىٰ الحانة خذوني إلىٰ الحانة!

---

(١) «السنة» لابن أبي عاصم (١/ ٧٤)، تحقيق د. بدر البدر.

(٢) «تاريخ بغداد» (١١/ ٤٥٧).

فقيل له: اتق الله، فقال: الآن انكشف الغطاء فلا دين ولا رب!»[(١)].

هلاك أحد متكلمي المعتزلة

قال ابن بطة رَحِمَهُ اللَّهُ: «أخبرنا أبو بكر النجاد قال: سمعت إبراهيم بن علي يقول: حضرت عند رجل من رؤوس المتكلمين وهو في النزع، فجعلت ألقنه (لا إله إلا الله)، فجعل يقول: العقل! العقل! البرهان! البرهان! حتى مات»[(٢)].

رجل كان يؤخر الصلاة

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال رجل لآخر: صَلِّ بنا. فقال: ليس عليَّ وضوء، فقيل له: توضأ، قال: لا أقدر، فقيل له: قل لا إله إلا الله. قال: ما أقدر»[(٣)].

من استهزأ بآيات الله

جاء في ذم الهوى: «وَحُكِيَ عَنْ رَجُلٍ أَنَّهُ حُضِرَ عِنْدَ الْمَوْتِ فَقِيلَ لَهُ: قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. فَقَالَ: مَا أَنْفَعَنِي مِمَّا تَقُولُونَ؟ مَا أُحِبُّ أَنْ أَقُولَهَا! فَمَاتَ»[(٤)].

---

(١) "سير أعلام النبلاء" (١٨/ ٤٩٠)، في ترجمة بعض الغلاة.

(٢) ابن بطة، الإبانة الكبرى (٥/ ٢٦١).

(٣) ابن الجوزي، "ذم الهوى" (ص: ٨٨)، تحقيق المصري.

(٤) ابن الجوزي، "ذم الهوى" (ص: ٨٨).

❁ رجل ممن يلازم الملاهي

قال الآجري رَحِمَهُ اللَّهُ: «حدّثنا أبو بكر قال: حدّثنا ابن أبي شيبة قال: حدثنا وكيع قال: سمعت الثوري يقول: بلغنا أن رجلاً حضره الموت فجعلوا يلقنونه الشهادة فجعل يقول: الدف! الدف! حتىٰ مات»(١).

❁ قصة من ضيّع الصلاة

قال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «سمعت من يقول: إن رجلاً حضره الموت فقيل له: قل لا إله إلا الله. فجعل يقول: خمسةٌ بستة! أربعةٌ بثمانية! حتىٰ مات، وكان يقامر»(٢).

❁ قصة رجل غلبته الشهوات

قال ابن قدامة رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقيل لرجل حضره الموت: قل لا إله إلا الله، فقال: هو كاذبٌ فيما يقول، ومات»(٣).

❁ قصة رجل جهمي اسود وجهه عند الموت

قال ابن بطة رَحِمَهُ اللَّهُ: «أخبرنا محمد بن عبد الله بن سليمان قال: حدثنا محمد

---

(١) أبو بكر الآجري، تحريم النرد والشطرنج والملاهي (ص: ٣٨).

(٢) الذهبي، «الكبائر» (ص: ٥٤)، طبعة دار البشائر.

(٣) ابن قدامة، التوابين (ص: ١٣٠).

بن إسماعيل الوراق قال: سمعت يحيىٰ بن معين يقول: كان لنا جارٌ من الجهمية، حضره الموت فاسودّ وجهه ووجهه كان أبيض، فجعلوا يلقنونه لا إله إلا الله فلا يستطيع أن يقولها»(١).

قصة رأس من رؤوس القدرية اسود وجهه

قال ابن بطة أيضًا: «قال أبو بكر النجاد: سمعت إبراهيم بن علي يقول: حضرت رجلاً من القدرية وهو يجود بنفسه فجعلوا يلقنونه الشهادة فجعل يقول: كذبًا كذبًا، واسود وجهه حتىٰ مات»(٢).

رجل ظهرت عليه سواد الوجه لشدة انهماكه في المعاصي

قال أبو نعيم الأصبهاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «سمعت شيخًا يقول: كان رجل من أهل الري يؤذي جيرانه بالمنكرات، فلما حضره الموت اسود وجهه حتىٰ نفروا منه، وكان لا يقر له لسانٌ بكلمة التوحيد»(٣).

قصة من اشتهر بالزندقة

قال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وحكىٰ ابن أبي الدنيا: أن زنديقًا حضره الموت، فجعلوا

(١) ابن بطة، "الإبانة الكبرىٰ" (٥/ ٢٦١)، تحقيق د. رضا بن ناصر.

(٢) ابن بطة، "الإبانة الكبرىٰ" (٥/ ٢٦١).

(٣) أبو نعيم، "حلية الأولياء" (١٠/ ٣١).

يلقنونه لا إله إلا الله فجعل يقول: كذبًا وكفرًا! حتىٰ اسود وجهه وخرجت منه رائحة منتنة»(١).

۞ قصة أحد أصحاب الملاهي

قال الآجري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال بعض الصالحين: حضرت رجلاً من أهل الغناء عند الموت فجعل وجهه يسود شيئًا فشيئًا حتىٰ صار كالفحم، وهو يقول: ويل لي! ويل لي!»(٢).

۞ من ظهر له علامة ظلمة عند النزع

قال ابن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قيل لرجل حضره الموت ممن عُرف بإضاعة الصلاة: قل لا إله إلا الله. فجعل ينظر إلىٰ سقف بيته ويقول: النار النار! واسود وجهه وخرجت رائحة كريهة من فمه حتىٰ مات»(٣).

۞ رجل عُرف بالكذب ظهرت منه رائحة خبيثة

قال أبو نعيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حُكِيَ أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الرَّيِّ كَانَ يُكَذِّبُ النَّاسَ وَيَبْغِي عَلَيْهِمْ، فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ أَنْتَنَ رِيحُهُ، فَأَخْرَجُوهُ مِنَ الدَّارِ وَتَرَكُوهُ فِي الْفِنَاءِ

---

(١) الذهبي، "سير أعلام النبلاء" (١٨/ ٤٩٠).

(٢) الآجري، تحريم النرد والشطرنج والملاهي (ص: ٣٩).

(٣) ابن قدامة، "التوابين" (ص: ١٣٠)، تحقيق مشهور.

حَتَّىٰ مَاتَ، مَا أَطَاقُوا قُرْبَهُ»[١].

❁ رجل ظهرت على جسده بقع سوداء وهو في النزع

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وحُكِيَ عن رجل كان يجاهر بالمعاصي ويؤخر الصلاة حتىٰ حضرته الوفاة، فظهرت في جسده بقع سوداء، فكان إذا غطوها ظهرت في موضع آخر، فما زالت حتىٰ مات علىٰ ذلك»[٢].

❁ رجل اشتهر بالربا خرجت منه رائحة خبيثة

قال ابن قدامة رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَقِيلَ عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الرِّبَا أَنَّهُ عِنْدَ النَّزْعِ خَرَجَ مِنْ فِيهِ رَائِحَةٌ مُنْتِنَةٌ حَتَّىٰ طَرَدَ أَهْلَهُ مِنَ الْغُرْفَةِ، وَمَاتَ وَهُوَ يَقُولُ: أَطْعِمُونِي مَالًا! أَطْعِمُونِي مَالًا!»[٣].

❁ صاحب شهوة لم يستطع التلفظ بالتوحيد

قال أبو الفرج ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وحُكِيَ عن رجل ممن كان يَتَّبِعُ النساء ويَكثرُ من الزنىٰ أنه عند الموت احمرّ وجهه كأنه الدم، وجعل يلتفت يمنةً ويسرةً، ويقول: أين فلانة؟ أين فلانة؟ حتىٰ مات ولم يقدر أن ينطق بـ(لا إله إلا

---

(١) أبو نعيم الأصبهاني، "حلية الأولياء" (١٠/ ٣١).

(٢) ابن الجوزي، "ذم الهوىٰ" (ص: ٨٨)، تحقيق المصري.

(٣) ابن قدامة، "التوابين" (ص: ١٣٠)، تحقيق مشهور.

الله)»[١].

۞ رجل تاجر ظَلم الناس فخرجت من جسده دماء قبل الموت

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حكىٰ بعض الصالحين: حضرتُ تاجراً ظالمـًا عند الموت، فجعل جسمه يرشح دمـًا من مسامه حتىٰ خاف أهله أن تتنجس ثيابه ومكانه، وهو يصرخ: ليتني لم أكن! حتىٰ مات علىٰ ذلك»[٢].

۞ رجل كان يطعن في الدين خرجت منه حشرات

قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وذكروا أن رجلاً كان يستهزئ بالدين فإذا هو عند الموت يخرج من فمه دودٌ صغير كالنمل، فلم يقدر أحد أن يقربه حتىٰ مات»[٣].

۞ رجل من أهل الملاهي خرج صوته بالغناء عند الموت

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حُكِيَ أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْغِنَاءِ حَضَرَهُ الْمَوْتُ، فَجَعَلُوا يُلَقِّنُونَهُ (لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)، فَجَعَلَ يَغَنِّي بِأَلْحَانِهِ حَتَّىٰ مَاتَ»[٤].

---

(١) ابن الجوزي، صيد الخاطر (ص: ٣٤٧).

(٢) ابن الجوزي، "ذم الهوىٰ" (ص: ٨٩)، بتحقيق المصري.

(٣) ابن حجر العسقلاني، "الزواجر عن اقتراف الكبائر" (١/ ١٨٩).

(٤) ابن القيم، "إغاثة اللهفان" (١/ ٤٠٨).

رجل مدمن خمر احتضر فطلب الخمر

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حُكِيَ أَنَّ رَجُلًا كَانَ يُكْثِرُ شُرْبَ الْخَمْرِ، فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قِيلَ لَهُ: قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَقَالَ: اسْقُونِي كَأْسًا! حَتَّىٰ مَاتَ»[١].

۞ رجل آخر كان يقامر فلم ينطق بالشهادة

قال الآجري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بلغني أن رجلًا من أهل القمار حضره الموت فجعلوا يلقنونه الشهادة فقال: خمسة بستة! أربعة بثمانية! وظل يكررها حتىٰ مات»[٢].

۞ رجل هتف عند موته بنداء حبيبته

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حُكِيَ عَنْ رَجُلٍ أَنَّهُ عِنْدَ النَّزْعِ جَعَلَ يَقُولُ: يَا فُلَانَةُ! يَا فُلَانَةُ! حَتَّىٰ مَاتَ، وَلَمْ يَنْطِقْ بِالشَّهَادَةِ»[٣].

۞ رجل ممن كان يستهزئ بأهل القرآن عند موته

قال الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حُكِيَ أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ السُّفْهِ كَانَ يَسْخَرُ بِالْقُرْآنِ وَأَهْلِهِ، فَلَمَّا احْتُضِرَ قِيلَ لَهُ: قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَجَعَلَ يَقُولُ: كَذِبْتُمْ! كَذِبْتُمْ! حَتَّىٰ

---

(١) ابن الجوزي، "ذم الهوىٰ" (ص: ٨٨).

(٢) الآجري، "تحريم النرد والشطرنج والملاهي" (ص: ٣٩).

(٣) ابن الجوزي، "صيد الخاطر" (ص: ٣٤٧).

مَاتَ»[١].

❋ رجل خرجت منه رائحة خبيثة حتى هرب أهله

قال ابن قدامة رَحِمَهُ اللهُ: «وَقِيلَ إِنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الظُّلْمِ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ فَخَرَجَ مِنْ بَدَنِهِ رِيحٌ مُنْتِنَةٌ جِدًّا حَتَّىٰ خَرَجَ أَهْلُهُ مِنَ الْبَيْتِ وَمَاتَ وَحْدَهُ»[٢].

❋ رجل قال عند النزع: اكذبوا! اكذبوا!

قال ابن بطة رَحِمَهُ اللهُ: «أخبرنا النجاد: سمعت إبراهيم بن علي قال: حضرتُ عند رجل من أصحاب الأهواء وهو يجود بنفسه فجعلوا يلقنونه الشهادة فجعل يقول: اكذبوا! اكذبوا! حتىٰ مات»[٣].

❋ رجل آخر غلبه حب الشطرنج

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «ذكروا أن رجلاً من لاعبي الشطرنج حضره الموت، فقيل له: قل لا إله إلا الله، فجعل يقول: شاه مات، شاه مات، حتىٰ مات»[٤].

---

(١) الذهبي، "الكبائر" (ص: ٥٤)، طبعة دار البشائر.

(٢) ابن قدامة، "التوابين" (ص: ١٣٠)، تحقيق مشهور.

(٣) ابن بطة، "الإبانة الكبرىٰ" (٥/ ٢٦١).

(٤) ابن القيم، "إغاثة اللهفان" (١/ ٤٠٨)، تحقيق مشهور.

رجل أُغشي عليه عند النزع وهو يسب

قال الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقال بعض الصالحين: حضرتُ رجلاً في النزع فجعل يسب ويلعن من حوله، فما استطاعوا تلقينه حتىٰ مات علىٰ ذلك»(١).

من أدركه الموت على مجلس لهو

ذكر ابن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «روي عن رجل من أهل المجون أنه شرب الخمر حتىٰ سكر ثم أغمي عليه، فلما أفاق حضرته الوفاة فجعل يهذي بكأس وكأسين حتىٰ مات»(٢).

رجل مشهور بالمعازف

قال ابن أبي الدنيا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حُكِيَ عن رجل كان مغنياً مطربًا، حضره الموت فجعل يقول: صُفُّوا القينات حولي! صُفُّوا القينات حولي! حتىٰ خرجت روحه وهو كذلك»(٣).

أحد الزنادقة أخرجوه من بيته عند النزع

ال الخطيب البغدادي: «ذكروا عن زنديق من الباطنية أنه حضره الموت

(١) الذهبي، "الكبائر" (ص: ٥٤)، طبعة دار البشائر.

(٢) ابن قدامة، "التوابين" (ص: ١٣٠).

(٣) ابن أبي الدنيا، كتاب "المحتضرين" (ص: ٧٦)، تحقيق حمزة المزي.

فانتفخ جسمه وأنتن ريحه حتىٰ أخرجوه من البيت ومات وحده»[١].

رجل كان ظالمًا للناس فاحتُضر فخرجت حشرات من جسده

قال أبو نعيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وذكر بعض الصالحين أنه رأىٰ رجلاً ظالمـًا حضره الموت فصاح وقال: احفروا لي! احفروا لي! ثم خرج من جسده دود حتىٰ امتلأ مكانه، ومات»[٢].

صاحب دنيا ودنانير عند النزع

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قيل لرجل من أهل الدنيا عند الموت: قل لا إله إلا الله، فجعل يقول: هذا لي، وهذا لي! ولم يتكلم بغيرها حتىٰ مات»[٣].

رجل كان ينشد الشعر حتى آخر نفس

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ذكروا أن رجلاً حضرته الوفاة، فقيل له: قل لا إله إلا الله، فجعل ينشد بيتًا من شعر الغزل حتىٰ مات»[٤].

---

(١) الخطيب البغدادي، "تاريخ بغداد" (٨/ ١٠١).

(٢) أبو نعيم الأصبهاني، "حلية الأولياء" (١٠/ ٣١).

(٣) ابن الجوزي، "ذم الهوىٰ" (ص: ٨٨).

(٤) ابن القيم، "إغاثة اللهفان" (١/ ٤٠٨).

رجل لعب النرد حتى عند الموت

قال الآجري رَحِمَهُ اللَّهُ: «بلغنا أن رجلاً من أهل النرد حضرته الوفاة فجعل يلقنونه الشهادة، فجعل يقول: كعبان أربعة، كعبان خمسة! حتىٰ مات»[١].

رجل حُمل إلى المسجد ومات على لهوه

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «حُكي عن رجل كان يُكثر حضور الملاهي والرقص، حملوه إلىٰ المسجد لما حضرته الوفاة ليُلقن، فما زال يهذي بأسماء المغنين حتىٰ مات»[٢].

رجل غلبه حب الغناء

قال ابن أبي الدنيا رَحِمَهُ اللَّهُ: «قِيلَ: إِنَّ رَجُلًا مِمَّنْ كَانَ يُغَنِّي وَيَضْرِبُ الْمَعَازِفَ، حَضَرَهُ الْمَوْتُ فَجَعَلَ يُصَفِّرُ وَيُصَفِّقُ حَتَّىٰ خَرَجَتْ نَفْسُهُ»[٣].

رجل دعي للشهادة فتكبر

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وحكىٰ بعضهم عن رجل من أهل الغرور حضره

---

(١) أبو بكر الآجري، تحريم النرد والشطرنج والملاهي (ص: ٣٩).

(٢) ابن الجوزي، «صيد الخاطر» (ص: ٣٤٧).

(٣) ابن أبي الدنيا، «المحتضرين» (ص: ٧٧).

الموت فقيل له: قل لا إله إلا الله. فقال: وهل أمثالي يُلَقَّن؟ ثم مات»[(١)].

رجل كان يؤذي جيرانه

قال أبو نعيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «حدّث بعضهم قال: كان معنا جار يُؤذينا، فلما حضرته الوفاة صرخ وقال: النار النار النار! حتىٰ مات»[(٢)].

أين الطريق إلى حمام منجاب

وذلك أن رجلًا كان واقفًا بإزاء داره، وكان بابُها يُشبه بابَ هذا الحمّام، فمرّت به جارية لها منظر، فقالت: أين الطريق إلىٰ حمام مِنجاب؟ فقال: هذا حمام منجاب. فدخلت الدار، ودخل وراءها. فلمّا رأت نفسَها في داره، وعلمت أنّه قد خدعها، أظهرت له البشر والفرح باجتماعها معه، وقالت له: يصلح أن يكون معنا ما يطيب به عيشنا، وتقرَّ به عيوننا . فقال لها: الساعة آتيكِ بكلّ ما تريدين وتشتهين. وخرج، وتركها في الدار، ولم يغلقها. فأخذ ما يصلح، ورجع، فوجدها قد خرجت، وذهبت، ولم تخنه في شيء. فهام الرجل، وأكثر الذكرَ لها، وجعل يمشي في الطرق والأزقّة ويقول:

يا رُبَّ قائلةٍ يومًا وقد تعبت ... كيف الطريق إلىٰ حمّام مِنجاب

---

(١) ابن الجوزي، "ذم الهوىٰ" (ص: ٨٩).

(٢) أبو نعيم، "حلية الأولياء" (١٠/ ٣١).

فبينا هو يومًا يقول ذلك، وإذا بجاريةٍ أجابته من طاق:

قَرْنانُ هلّا جعلتَ إذ ظفرتَ بها ... حِرزًا على الدار أو قفلًا على الباب

فازداد هيمانه، واشتدّ هيجانه، ولم يزل على ذلك حتى كان هذا البيت آخر كلامه من الدنيا[١].

قصة المؤذن

ويروى أنّه كان بمصر رجل يلزم مسجدًا للأذان والصلاة وعليه بهاء الطاعة وأنوار العبادة، فرقي يومًا المنارةَ على عادته للأذان، وكان تحت المنارة دار لنصراني، فاطّلع فيها، فرأى ابنة صاحب الدار، فافتتن بها، فترك الأذان ونزل إليها، ودخل الدار عليها، فقالت له: ما شأنك؟ وما تريد؟ قال: أريدكِ. قالت: لماذا؟ قال: قد سَبَيتِ لُبِّي، وأخذتِ بمجامع قلبي. قالت: لا أجيبك إلى ريبة أبدًا. قال: أتزوجك. قالت: أنت مسلم، وأنا نصرانية، وأبي لا يزوجني منك. قال لها: أتنصّر. قالت: إن فعلت أفعل. فتنصّر الرجل ليتزوجها، وأقام معهم في الدار فلمّا كان في أثناء ذلك اليوم رقي إلى سطح كان في الدار فسقط منه، فمات، فلم يظفر بها، وفاته دينه![٢].

(١) «الداء والدواء» (٣٨٨).

(٢) «الداء والدواء» (٣٩٢).

قصة المقرئ الذي تنصَّر، نعوذ بالله من الانتكاس!!!

وقال الإمام ابن كثير في "البداية والنهاية" أحداث سنة تسع وسبعين ومائتين: «وفيها توفي عبده بن عبد الرحيم - قبَّحَه الله -، ذكرَ ابنُ الجوزي أنَّ هذا الشقي كان من المجاهدين كثيرًا في بلاد الروم، فلمَّا كان في بعض الغزوات، والمسلمون مُحاصِروا بلدة من بلاد الروم؛ إذ نظر إلىٰ امرأة من نساء الروم في ذلك الحصن، فهَوِيَها، فرَاسَلَها: ما السبيل إلىٰ الوصول إليكِ؟ فقالت: أن تتنصَّر، وتصعد إليَّ، فأجابها إلىٰ ذلك، فما راع المسلمين إلا وهو عندها، فاغتمَّ المسلمون بسبب ذلك غمًّا شديدًا، وشقَّ عليهم مشقة عظيمة، فلما كان بعد مُدَّةٍ مرُّوا عليه وهو مع تلك المرأة في ذلك الحصن، فقالوا: يا فلان! ما فعل قرآنك؟ ما فعل علمك؟ ما فعل صيامك؟ ما فعل جهادك؟ ما فعلت صلاتك؟ فقال: اعلموا أنِّي أُنسِيتُ القرآن كلَّه إلا قوله: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۝٢ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٣﴾ [الحجر:٢-٣]، وقد صار لي فيهم مالٌ وولد»[(١)]. اهـ.

نسأل الله الثبات علىٰ الحق حتىٰ الممات.

(١) ذكرها الحافظ الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (٢٠/ ٦٩).

۞ قصة شاب سُقي خمرًا عند الموت

عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، قال: «كان شابٌّ ممَّن كان قبلكم، فسقاه صاحب له كأسًا عند الموت، فمات وما توضأ من خمرٍ قط»(١).

۞ قصة المغني الذي مات وهو يغني

عن عمر بن عبد العزيز، قال: «كان رجلٌ يغني، فبينما هو يغني إذ مات علىٰ مغناه»(٢).

۞ قصة رجل كان يضحك في مرضه

عن يزيد بن هارون، عن حميد الطويل، قال: «كان رجلٌ يضحك في مرضه ويقول: انظروا كيف أصنع، ثم مات وما تاب ولا استغفر»(٣).

---

(١) ابن أبي الدنيا، سوء الخاتمة "تحقيق الفريوائي"، رقم الأثر: (٢).

(٢) ابن أبي الدنيا، سوء الخاتمة، رقم الأثر: (٧).

(٣) ابن أبي الدنيا، سوء الخاتمة، رقم الأثر: (٩).

من ظهرت عليه علامات سيئة عند الغُسل

إن من سنن الله في خلقه أن الموت بوابة عظيمة تُكشف فيها أسرار، ويُظهر الله فيها من العلامات ما يكون عبرةً للأحياء، وقد ثبت في النصوص أن من الناس من يُختم له بخاتمة السوء، فيُرىٰ عليه عند موته ما يدل علىٰ ذلك من تغيّر وجه، أو نتن رائحة، أو اضطراب في حاله، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأنعام:٩٣]، وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران:١٠٦].

لكن من ميزان العدل الذي عليه أهل السنة والجماعة، أن ليس كل تغيّر يُرىٰ علىٰ بدن الميت يدل علىٰ سوء الخاتمة، فإنّ للجسد أحوالًا طبيعية بعد الموت، كتحلل، أو أمراض سابقة، أو تأخر في التغسيل، قد تؤدي إلىٰ سواد الوجه أو خروج روائح منتنة، دون أن تكون علامة علىٰ مصيره الأخروي.

وقد قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تغيّر البدن قد يكون لأسباب طبعية، وقد يكون لأثر الخاتمة، ولا يُقطع بشيء إلا ببينة».

فالحكم علىٰ الخاتمة يحتاج إلىٰ قرائن شرعية واضحة، لا مجرد مظاهر، والعاقل لا يتعجل بالحكم علىٰ الموتىٰ، بل يسترهم ويدعو لهم، ويسأل الله حسن الخاتمة لنفسه وللمسلمين، وإليك بعض القصص ممن ثبت بالقرائن أنها

علامة علىٰ سوء خاتمتهم:

۞ قصة الغاسل الذي احترق جسده أثناء تغسيله

ذُكر عن بعض السلف أن رجلًا كان يغسل الأموات، فجيء له برجل مات علىٰ سوء حال، فلما كشف عنه ليغسله إذا بيده قد التصقت بجنبه، وكلما أراد أن يبعدها رجعت، قال: فاغتسل الغاسل بعد ذلك من الرعب مرات، ثم احترق جلده بعد أيام(١).

۞ قصة الشاب الذي كان يُغسَّل فتغير لونه

روي أن بعض المغسلين كانوا يغسلون شابًا مات فجأة، وكان من أهل الفجور، فلما صبوا عليه الماء اسودَّ وجهه فجأة حتىٰ ارتعب الحاضرون، وحاولوا أن يغيروا اللون فلم يقدروا، فخرجت رائحة كريهة حتىٰ تركه بعضهم وولّوا هاربين(٢).

۞ قصة صاحب الدكان الذي كان يغش الناس

ذُكر عن أبي بكر بن أبي الدنيا في كتابه حسن الخاتمة أن رجلًا كان يغش في الميزان، فلما مات جيء به ليُغسل، فكلما أرادوا غسله انقلب لونه إلىٰ سواد

---

(١) ابن القيم، «الداء والدواء» (ط. دار عالم الفوائد) (صـ١٣٧).

(٢) «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم» (ط. دار صادر) (جـ٩ صـ٥٠).

شديد، وظهرت علىٰ كفه آثار سواد كالحبر، فتركوه ولم يقدر أحد أن يغسله إلا بشدة[١].

قصة الرجل الذي نطق أثناء تغسيله بما يكره

قال ابن قدامة في المنتخب من علل الخلال: بلغنا أن رجلًا كان معروفًا بالفسق شُرِع في تغسيله، فما وضعوه علىٰ اللوح إلا وفتح فمه وقال: دعوني، لا أريد أن أُغسَّل، وظل يصرخ حتىٰ برد جسمه[٢].

قصة رجل مات على خمر

ذكر الذهبي في سير أعلام النبلاء أن رجلًا أدمن الخمر، فلما مات جيء به ليغسل، فكان كلما صبوا عليه الماء يخرج من فيه رائحة الخمر، وظلت تفوح حتىٰ بعد تكفينه، حتىٰ تأذىٰ منها الناس[٣].

(١) ابن أبي الدنيا، حسن الخاتمة (تحقيق الفريوائي) (صـ ٢٤).

(٢) "المنتخب من علل الخلال" (صـ ٢٤٧).

(٣) الذهبي، "سير أعلام النبلاء" (ط. الرسالة) (جـ ١٩ صـ ٣٤٧).

۞ قصة من تاب ثم خان التوبة

روىٰ ابن حجر في الزواجر أن رجلًا تاب من معصية ثم رجع إليها، فمات علىٰ فراشه، فلما أرادوا غسله وجدوا علىٰ ظهره سوادًا شديدًا كأنه حرق، وكان مما أفزع مغسِّليه[(١)].

القصة: ذكر ابن القيم في الداء والدواء أن بعض من كان يغسل الأموات حكىٰ: «أتيتُ برجل لأغسله، فلما كشفتُ الثوب عن وجهه وجدتُه مسودًّا، فمددتُ يدي لأغسلها فالتصقت يدي بوجهه، فما استطعتُ أن أنزعها حتىٰ بكيتُ واستغثتُ بالله، ثم انفكت بعد جهدٍ. فغسلتُ يدي فلم يزل فيها أثر السواد أيّامًا».

وهذه الرواية تجدها بصيغة قريبة في بعض كتب المواعظ: «فإن بعض الغاسلين قال: فلما أردت أن أُغسله التصقت يدي بوجهه، فما استطعتُ نزعها حتىٰ دعوتُ الله»[(٢)].

۞ رجل ظهرت له رائحة خبيثة أثناء تغسيله

---

(١) ابن حجر الهيتمي، "الزواجر عن اقتراف الكبائر" (ط. دار الكتب العلمية) (١) (صـ ١٠٠).

(٢) ابن القيم، "الداء والدواء" (طبعة عالم الفوائد)، (صـ ١٣٧)، ونقلها ابن القيم عن بعض السلف في باب المواعظ.

روىٰ الإمام القرطبي في التذكرة، قال: وقال بعض من كان يغسل الأموات: «جيء لنا برجلٍ فغسلناه، فخرجت من جسده رائحةٌ خبيثةٌ جدًّا حتىٰ خرجنا من المغسلة مرارًا من نتن رائحته»(١).

۞ قصة المشهور الذي كان يُغسل فاسودّ جسده

نقل ابن الجوزي في المنتظم عن بعض المغسلين: «دُعيتُ لغسل رجلٍ كان يجمع المال من الربا ويحبس أموال الناس، فلما بدأنا في غسله إذا بوجهه يسود شيئًا فشيئًا حتىٰ اسودَّ كله، فما استطعنا أن نكفنه حتىٰ وضعنا عليه الحنوط مرارًا حتىٰ يخفىٰ لونه»(٢).

۞ قصة تغسيل الفاسق الذي خرج منه دم أسود

نقل السفاريني في غذاء الألباب: «وذكر بعض الغاسلين قال: أُتيتُ برجلٍ معلوم الفسق، فلما صببتُ الماء علىٰ بطنه خرج منه دمٌ أسودٌ كثير حتىٰ غسلتُه مرارًا فلم ينقطع»(٣).

وقد يجري الله علىٰ بعض العصاة عند موتهم أو أثناء تشييعهم من العلامات

---

(١) القرطبي، "التذكرة بأحوال الموتىٰ وأمور الآخرة"، (صـ٦٢) طبعة دار المنهاج.

(٢) "المنتظم في تاريخ الملوك والأمم"، (٩- ٥٠).

(٣) السفاريني، "غذاء الألباب شرح منظومة الآداب"، (جـ٢) (صـ٤٣٨).

الظاهرة ما يكون نذيرًا للعبرة، وشاهدًا علىٰ سوء الخاتمة، فتسقط الجنازة من أيدي المشيعين بلا علة، أو تنكشف عورة الميت وهو يُحمل، أو تفوح منه روائح نتنة لم تكن قبل ذلك.

فهذه المشاهد، إذا اقترنت بحالٍ فاسدة أو كان الميت مشهورًا بالتفريط والمعصية، فإنها تُخشىٰ أن تكون من دلائل الخزي في الدنيا قبل الآخرة.

وقد قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد يُرىٰ علىٰ الميت من العلامات ما يدل علىٰ سوء الخاتمة، من سواد وجه، أو نتن ريح، أو نفورٍ من جنازته، وذلك بحسب خبايا عمله»[(١)].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وللمعاصي آثارٌ وثاراتٌ، تظهر في القلب وفي البدن، وقد لا تُخفىٰ علىٰ أهل الكشف عن الميت حتىٰ بعد دفنه، تدعُوه عبرةً للآخرين»[(٢)].

غير أن هذه العلامات لا يُقطع بها دائمًا، فقد تقع لسبب طبعي، أو خلل في الحمل، أو عارض من أمراض البدن، فلا تُنزل منزلة اليقين إلا مع قرائن.

فليحذر العبد الذنوب، فإن لها في اللحود آثارًا، وفي الجنائز فضائح، والله يُعزّ من أطاعه، ويُخزي من عصاه.

لفظته الأرض

(١) "الروح"، (ص ١٤٢).

(٢) "الروح"، (ص. تقريبية ١٤٢).

عن انس رضي الله عنه قال: «كَانَ مِنَّا رَجُلٌ مِن بَنِي النَّجَّارِ قدْ قَرَأَ البَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ وَكانَ يَكْتُبُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَانْطَلَقَ هَارِبًا حتَّىٰ لَحِقَ بأَهْلِ الكِتَابِ، قالَ: فَرَفَعُوهُ، قالوا: هذا قدْ كانَ يَكْتُبُ لِمُحَمَّدٍ فَأُعْجِبُوا به، فَما لَبِثَ أَنْ قَصَمَ اللهُ عُنُقَهُ فيهم، فَحَفَرُوا له فَوَارَوْهُ، فأصْبَحَتِ الأرْضُ قدْ نَبَذَتْهُ علَىٰ وَجْهِهَا، ثُمَّ عَادُوا فَحَفَرُوا له، فَوَارَوْهُ فأصْبَحَتِ الأرْضُ قدْ نَبَذَتْهُ علَىٰ وَجْهِهَا، ثُمَّ عَادُوا فَحَفَرُوا له، فَوَارَوْهُ فأصْبَحَتِ الأرْضُ قدْ نَبَذَتْهُ علَىٰ وَجْهِهَا، فَتَرَكُوهُ مَنْبُوذًا»(١).

ولقد دلّ الكتاب والسنة علىٰ ثبوت عذاب القبر ونعيمه، وهو من عقيدة أهل السنة والجماعة التي لا يُجادل فيها إلا مبتدع، قال تعالىٰ: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ١٠١﴾ [التوبة:١٠١].

قال السلف: العذاب الأول في الدنيا، والثاني في القبر.

وورد في الصحيحين عن النبي ﷺ: «**إن هذه القبور مملوءة ظلمة علىٰ أهلها، وإن الله ينورها لهم بصلاتي عليهم**».

وفي الصحيح أيضًا: «**إن العبد إذا وضع في قبره وتولىٰ عنه أصحابه وإنه ليسمع قرع نعالهم...**» ثم يذكر سؤال الملكين.

لكن الدليل لا يقف عند النصوص، بل يتعداها إلىٰ الواقع المشهود

---

(١) "البخاري" رقم: (٣٦١٧) ومسلم (٢٧٨١).

المحسوس الذي لا يمكن دفعه، ولا إنكاره، بل يتواتر في كل جيل، وهو ما شهدته العيون، وسمعته الآذان، ووعته القلوب، حتىٰ صار عذاب القبر بالنسبة لأهل الإيمان يقينًا لا يساوره شك.

فمن ذلك ما يلي:

١- رؤية النار أو السواد عند القبر.

كثير من الناس عند حفر القبور أو دفن الموتىٰ يرون أحيانًا في باطن الأرض سوادًا حالكًا، أو دخانًا يخرج من القبر، أو رائحة خبيثة، رغم أن الأرض كانت سليمة طيبة. وقد حدث هذا كثيرًا، ودوّنه أهل العلم، ومنهم ابن أبي الدنيا وابن رجب في كتبهم عن القبور والموت، ورآه طلاب العلم، ورجال مغاسل الموتىٰ، بل عامة الناس.

٢- قصة الرجل الذي لفظته الأرض.

ذكر أهل العلم قصة رجل من أهل الفساد والشر، مات ودفن، فإذا بالقبر يلفظه ثلاث مرات، حتىٰ تركوه علىٰ وجه الأرض، فعرف الناس أن الأرض أبت أن تأوي من عصىٰ الله وبارزه بالمعاصي. وهذه القصة مذكورة في كتب التراجم، ومنها ما نقله الشوكاني في نيل الأوطار عن رجل ساءت خاتمته فانتفخ جسده حتىٰ انهدّ عليه البناء، ثم لفظته الأرض.

٣- سماع أصوات من القبور.

وثبت أن بعض الناس سمعوا أنينًا وصراخًا واستغاثات من بعض القبور، وحدث هذا في عصور السلف، ولا يزال يُروىٰ إلىٰ اليوم، خاصة في أوقات متأخرة من الليل أو عند المقابر المهجورة. وقد دوّن ابن أبي الدنيا وأبو نعيم وغيرهما هذه القصص، وروىٰ عن طائفة من الزهاد والصالحين سماعهم لتلك الأصوات، فكانت سببًا في توبتهم.

٤- رؤية سلاسل تنزل من السماء.

وروي عن بعض الصالحين، ومنهم من تاب إلىٰ الله بسبب ذلك، أنه رأىٰ سلسلة نارية تنزل من السماء وتضرب قبرًا بعينه، في أيام متتابعة، فسأل عن صاحب القبر، فإذا هو رجل كان مشهورًا بالإعراض عن الصلاة والسب، فاستبان له أن هذا عذاب معجّل في القبر.

٥- رؤية الموتى بعد وفاتهم في صور مخيفة.

كثير من الناس رأىٰ أقرباءه أو من يعرفهم بعد وفاتهم، في الرؤىٰ، وهم يعذبون، أو يصيحون ويستغيثون، أو يظهر عليهم أثر الحريق أو السواد، أو يطلبون الدعاء والنجاة، فيتكرّر ذلك مرارًا حتىٰ يوقن الرائي أنه حق.

٦- تغيرات بدنية عند تغسيل الميت.

وقد شوهد علىٰ بعض الأموات أثناء الغُسل، ممن كانوا علىٰ المعاصي، سوادٌ في الوجه، أو تشنّجٌ في اليدين، أو انبعاثٌ لرائحة خبيثة لا تزول بالماء

والصابون، أو تصلب الجسم بطريقة غير معتادة، وكلها من علامات عذاب القبر أو مقدماته كما أسلفنا.

٧- أقوال أهل الخبرة (المغسلين وحفاري القبور).

ومن العجب أن حفاري القبور ومغسّلي الموتىٰ هم أكثر الناس تواترًا في الشهادة علىٰ آثار عذاب القبر، فكثير منهم ترك هذا العمل أو تاب إلىٰ الله مما رآه من الفواجع في وجوه الموتىٰ، ومنظر قبور لا تُغلق، أو تبعث رائحة كريهة حتىٰ بعد الدفن.

وفي ذلك عبرة لمن كان له قلب.

من رأىٰ هذه المشاهد، أو سمعها من ثقات، لم يبق له عذر في الغفلة. فإن لم يُردعنا كلام الله ورسوله، فرؤية النار تخرج من القبور، أو سماع صياح الموتىٰ، أو اشتمام رائحة الجيفة، كفيلة بأن توقظ القلوب، وتدفعنا للعمل الصالح، والبعد عن المعاصي.

وهكذا فإن كنتَ ممن يُنكر عذاب القبر، فاسأل أهل الخبرة، واقرأ ما دوّنه أهل العلم في كتبهم، وتأمل في الواقع، فإنك ستوقن أن ما أخبر الله به ورسوله من عذاب القبر هو الحق الذي لا مرية فيه.

نسأل الله أن ينجينا وإياك من عذاب القبر، وأن يجعل قبورنا روضات من رياض الجنة، لا حفراً من حفر النار.

أنواع ستر الله للعبد

إنَّ من أعظم مظاهر رحمة الله بعبده أن يستره، فلا يفضحه بذنوبه، ولا يُشهِّر به بين خلقه، بل يُلبِسه ثوب العافية، ويُبقِي له سُمعته بين الناس، ويُغلق دونه أبواب الفضيحة، وهو القادر علىٰ أن يفضحَه بأهون سبب.

فستر الله ليس نوعًا واحدًا، بل هو أبواب متعددة، تشمل حياة العبد في دنياه، ومماته، وقبره، وحتّىٰ يوم يُبعث الناس لرب العالمين.

قد يستر الله معصيته عن أعين الخلق، أو يستر عيبه في جسده أو خُلُقه، أو يستر فقره وضعفه، أو سترًا في سمعته، أو سترًا أعظم من ذلك: أن يُخفي عنه الفتن، ويقيه شرّ الانكشاف في ساعة الغفلة وسوء الخاتمة.

ومن أكرم أنواع الستر: ستر الآخرة، حيث يُقرّب العبد من ربه يوم القيامة، ويُذكّره بذنوبه بينه وبينه، ثم يقول له: «سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم»، فينجو العبد وقد ظنّ أنه هالك، ويخرج مستورًا كما عاش مستورًا.

فمن ستر الناس ستره الله، ومن هتك ستر نفسه هتكه الله، ومن جاهر بذنبه خذله الله.

فما أعظم أن تعيش مستورًا، وتموت مستورًا، وتُبعث مستورًا، وتدخل الجنة، وما اطّلع علىٰ ذنبك أحدٌ من الخلق قط وإليك أنواع التستر:

النوع الأول: الستر عن أعين الناس

إن من أعظم صور رحمة الله بعبده أن يقع في الذنب، ثم يستر الله عليه، فلا تراه عين، ولا يسمع به أحد، ولا يُفضح في مجلس، ولا يُشاع عنه أمر، وكأن الذنب لم يكن.

وهذا الستر الإلهي إنما هو فضلٌ من الله، يُعطيه من يشاء من عباده، لحِكَمٍ يعلمها، لعلّ العبد يتوب ولا يفتن، ويخاف ولا يجاهر، ويعود إلىٰ الله مستترًا خائفًا، فيُحبه الله، لا لذنبه، بل لانكساره بعد الذنب.

والخطير أن بعض الناس يهتك هذا الستر بأحد أمرين:

١- بالمجاهرة، فيفضح نفسه بنفسه.

٢- بالتكرار والإصرار، فيُكشف أمره علىٰ رؤوس الأشهاد عدلاً من الله.

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال رسول الله ﷺ: «**كل أمتي معافىٰ إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل العبد بالليل عملاً، ثم يُصبح وقد ستره الله، فيقول: يا فلان، عملتُ البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، ويُصبح يكشف ستر الله عنه**»[(١)].

قال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ: «المجاهرة ترفع الستر، وتُبقي العبد عرضة للفضيحة

---

(١) رواه البخاري (حديث رقم: ٦٠٦٩)، ورواه مسلم (حديث رقم: ٢٩٩٠).

والعقوبة، بخلاف من استتر واستغفر وتاب»[١].

وإليك هذا الكلام النفيس ولو كان طويلا للإمام ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ قال: قال سَماحة العلَّامةِ الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: ذكر المؤلِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ فيما نقله عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**كلُّ أمَّتي مُعافًىٰ إلا المجاهرين**».

يعني: بـ(كل الأُمَّة) أُمَّةَ الإجابة الذين استجابوا للرسول ﷺ.

«مُعافًىٰ» يعني: قد عافاهم الله عز وجل.

«إلا المجاهرين»: والمجاهرون هم الذين يُجاهِرون بمعصية الله عز وجل.

وهم ينقسمون إلىٰ قسمين:

الأول: أن يعمل المعصية وهو مجاهر بها، فيعملها أمام الناس، وهم ينظُرون إليه، هذا لا شكَّ أنه ليس بعافية؛ لأنه جرَّ علىٰ نفسه الويل، وجرَّه علىٰ غيره أيضًا.

أما جرُّه علىٰ نفسه: فلأنه ظلَمَ نفسه حيث عصىٰ الله ورسوله، وكلُّ إنسان يعصي الله ورسوله فإنه ظالم لنفسه؛ قال الله تعالىٰ: ﴿**وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٥٧**﴾ [البقرة:٥٧].

والنفس أمانة عندك يجب عليك أن ترعاها حقَّ رعايتها، وكما أنه لو كان

(١) "فتح الباري" (١٠/ ٤٨٦).

لك ماشية فإنك تتخير لها المراعيَ الطيبة، وتُبعِدها عن المراعي الخبيثة الضارة، فكذلك نفسك، يجب عليك أن تتحرىٰ لها المراتعَ الطيبة، وهي الأعمال الصالحة، وأن تبعدها عن المراتع الخبيثة، وهي الأعمال السيئة.

وأما جرُّه علىٰ غيره: فلأن الناس إذا رأَوْه قد عمل المعصية، هانت في نفوسهم، وفعَلوا مِثله، وصار - والعياذ بالله - من الأئمة الذين يَدْعون إلىٰ النار، كما قال الله تعالىٰ عن آل فرعون: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ [القصص:٤١].

وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «**من سنَّ في الإسلام سنة سيئة، فعليه وِزرُها ووِزرُ من عمل بها إلىٰ يوم القيامة**».

فهذا نوع من المجاهرة، ولم يذكُرْه النبي ﷺ؛ لأنه واضح، لكنه ذكَرَ أمرًا آخر قد يخفىٰ علىٰ بعض الناس، فقال: ومن المجاهرة أن يعمل الإنسان العمل السيئ في الليل فيستره الله عليه، وكذلك في بيته فيستره الله عليه ولا يُطلِع عليه أحدًا، ولو تاب فيما بينه وبين ربِّه، لكان خيرًا له، ولكنه إذا قام في الصباح واختلط بالناس قال: عملتُ البارحة كذا، وعملت كذا، وعملت كذا، فهذا ليس معافىً، هذا - والعياذ بالله - قد ستر اللهُ عليه فأصبح يفضح نفسَه.

وهذا الذي يفعله بعض الناس أيضًا يكون له سببان:

السبب الأول: أن يكون الإنسان غافلًا سليمًا لا يهتم بشيء، فتجده يعمل السيئة ثم يتحدث بها عن طهارة قلب.

والسبب الثاني: أن يتحدث بالمعاصي تبجُّحًا واستهتارًا بعظمة الخالق - والعياذ بالله - فيصبحون يتحدَّثون بالمعاصي متبجحين بها كأنما نالوا غنيمة، فهؤلاء - والعياذ بالله - شرُّ الأقسام.

ويوجد من الناس من يفعل هذا مع أصحابه، يعني أنه يتحدث به مع أصحابه فيُحدِّثهم بأمر خفي لا ينبغي أن يُذكَر لأحد، لكنه لا يهتم بهذا الأمر، فهذا ليس من المعافَيْنَ؛ لأنه من المجاهرين.

والحاصل أنه ينبغي للإنسان أن يتستر بسترِ الله عز وجل، وأن يحمد اللهَ علىٰ العافية، وأن يتوب فيما بينه وبين ربِّه من المعاصي التي قام بها، وإذا تاب إلىٰ الله وأناب إلىٰ الله، سترَه الله في الدنيا والآخرة، والله الموفق[١].

قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ: «من عمل في السر عملًا يستحيي أن يعمله في العلانية، فذلك نقص في إخلاصه»[٢].

وعن أبي برزة الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ قال: «يا معشر من آمن بلسانه، ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم، تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته، يفضحه ولو في جوف

---

(١) المصدر: "شرح رياض الصالحين" (٣/ ١٥- ١٨).

(٢) "جامع العلوم والحكم" لابن رجب (ص: ٢٧٨).

بيته»[١].

قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المؤمن يستر وينصح، والفاجر يهتك ويُعيّر»[٢].

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من عيَّر أخاه بذنب قد تاب منه، ابتُلي به، وفضحه الله بين خلقه»[٣].

۞ النوع الثاني من أنواع الستر للعبد

مما يدلّ علىٰ سعة رحمة الله، وكمال لطفه بعباده، أنه لا يُبادر بعقوبة العاصي، ولا يُشهّره بين الناس، بل يستره بعد المعصية، ويُمهله، ويُرسل إليه رسائل التوبة، وقد يكون الذنب عظيمًا في الخفاء، لكن الله لا يفضح صاحبه، ولا يُسقط هيبته، بل يبقيه في ثوب الكرامة بين الناس.

وقد ترىٰ رجلًا بين الناس يُبجّله الناس، ويُحسنون به الظن، ولو كشف الله ستره لهُلك.

ولكن الله لا يفضحه، رحمةً به، لعلّه يتوب.

(١) رواه أبو داود (٤٨٨٠)، وصححه الألباني في "صحيح أبي داود".

(٢) "جامع العلوم والحكم لابن رجب (ص: ٧٧).

(٣) "صيد الخاطر" (ص: ٣٤٠).

وهذا من أعظم دلائل اسمه: «السِّتّير»، الذي لا يحبّ الفضيحة، ويحبّ العفو والستر.

إنه سترٌ بعد وقوع الذنب، لا قبله، فهو سترُ عفوٍ وحلم، لا ستر وقايةٍ فقط.

لكن هذا الستر قد يُرفع، ويُكشف العبد إن أصرّ أو جاهر أو استكبر، فكم من مستور أصبح مفضوحًا، لا لأن الله أراد فضيحته، بل لأنه أبىٰ أن يتوب، وظن أن ستر الله إهمال، لا حلم.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ: «يدني الله العبد المؤمن فيضع عليه كنفه، ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟

فيقول: نعم أي رب، حتىٰ إذا قرّره بذنوبه، ورأىٰ في نفسه أنه هلك، قال: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم»(١).

وقال ﷺ: «إن الله عز وجل حييّ ستير، يحب الحياء والستر، فإذا اغتسل أحدكم فليستتر»(٢).

قال ابن رجب رحمه الله: «مِن أعظم نعم الله علىٰ العبد أن يبتليه بذنب، ثم يُنعم عليه بتوبة، ثم يستره ولا يُظهره، فيعيش بين الناس وهم لا يعلمون عنه شيئًا،

---

(١) رواه البخاري (حديث ٢٤٤١)، ومسلم (حديث ٢٧٦٨).

(٢) رواه أبو داود (٤٠١٢)، والنسائي (٤٠٦)، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (رقم: ٢٠٩).

فيستر عليه ربه بعد الذنب كما ستره قبله»[١].

قال عبد الله بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «إنّ الرجل ليذنب الذنب، فيُحرم به قيام الليل، ويظل مستورًا ما لم يُصرّ أو يُجاهر»[٢].

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «رأيت عاصيًا يُجلّه الناس، وله منزلة عندهم، فقلت في نفسي: عجبًا! أليس هذا فلان العاصي؟ فوقع في قلبي: بلىٰ، ولكن الله لم يفضحه، لعلّه تاب، فاحذر أن تُذكره بذنبٍ قد ستره الله عليه»[٣].

وقال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: «من وعظ أخاه سرًّا فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه»[٤].

النوع الثالث من أنواع ستر الله للعبد

الموت ساعة الحقيقة، تخرج فيها الأرواح، وتنحلّ فيها العقد، وتنكشف الأستار، ويظهر علىٰ وجوه الناس ما كانوا عليه من طاعة أو معصية.

لكن من رحمة الله بعبده المؤمن، أن يستر عليه عند موته، فلا يُرىٰ منه إلا الخير، ولا تُشمّ منه إلا الروائح الطيّبة، ولا يظهر عليه إلا السكون والطمأنينة،

---

(١) ابن رجب، "جامع العلوم والحكم" (٢/ ٣٥١).

(٢) والعز بن عبدالسلام في "شجرة المعارف" (ص: ١١٣).

(٣) "صيد الخاطر" (ص: ١٤١).

(٤) البيهقي، "شعب الإيمان" (ج٦/ ص١٤٤).

حتىٰ وإن كان قد أخطأ أو زلّ، ستره الله في الدنيا، وأتمّ ستره عند الخروج من الدنيا.

وقد يظهر علىٰ الميت من الناس علامات سوء، وفضيحة عند الغُسل أو التشييع أو الدفن، وكل هذا من رفع الستر والعياذ بالله.

لكن من الناس من يموت مستور الحال، حسن الوجه، طيّب الرائحة، ساكن الجسد، وهذه علامة علىٰ كرم الله به، وتمام ستره عليه.

فالستر عند الموت من دلائل حسن الخاتمة، وهو ليس من صنع الإنسان، بل من محض رحمة الستير جلّ جلاله وقد أسلفنا قصصا في الباب.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أراد الله بعبدٍ خيرًا استعمله»، قالوا: يا رسول الله، وكيف يستعمله؟ قال: «يوفّقه لعمل صالحٍ قبل الموت ثم يقبضه عليه»(١).

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان آخر كلامه من الدنيا: لا إله إلا الله دخل الجنة»(٢).

قال سعيد بن المسيب رحمه الله: «إذا أراد الله بعبدٍ خيرًا ستر عليه عند الموت،

---

(١) وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (رقم: ١١١٤).

(٢) رواه أبو داود (٣١١٦)، وصححه الألباني في "أحكام الجنائز" (ص ١٥٦).

فلا يُرىٰ منه إلا ما يُحب، ويُشهَد له بالصلاح، وإن كان بينه وبين الله خفايا»[(١)].

قصة موت الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: لما حضرته الوفاة، بكىٰ، وقال: «وا سوأتاه منك، وإن عفوت، فكيف ألقاك؟ ثم بكىٰ طويلًا، ثم سكن وجهه، فخرجت منه رائحة طيّبة عظيمة، حتىٰ قال من حضره: ما شممنا مثلها»[(٢)].

قصة موت عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ: قالوا: لما مات، لمّا وُضع علىٰ المغتسل، وجدوا منه رائحةً كأطيب المسك، فقال بعضهم: «هذه من أعماله الخفية، فأظهرها الله عند موته»[(٣)].

فمن عاش مستورًا، قُبض مستورًا، ومن عاش يُجاهد نفسه، ختم له الله بستر في أعظم لحظاته،

فلا تُهتك أستار الله بالمجاهرة، لعلّ الله يختم لك بسترٍ لا يُعرف معه إلا الصلاح.

۞ النوع الرابع من أنواع ستر الله للعبد: الستر في القبر ويوم القيامة

كان العبد في الدنيا مستور الحال، محافظًا علىٰ خلوته، متحفظًا من

---

(١) ابن أبي الدنيا، حسن الخاتمة (ص: ٤٧)، الذهبي، "سير أعلام النبلاء" (٥/ ٣٦٥).

(٢) الذهبي، "سير أعلام النبلاء" (٨/ ٤٢٦)، ابن الجوزي، "صفة الصفوة" (٤/ ١٢٢).

(٣) ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل (١/ ١٦٦)، الذهبي، "سير أعلام النبلاء" (٨/ ٣٩٦).

المجاهرة، فإن الله عز وجل لا يضيّع ذلك أبدًا، بل يثيب عليه سترًا في أشد المواطن رهبة ووحشة: في القبر ويوم القيامة.

ففي القبر، حين تُدفن الأجساد، وينصرف الأحباب، ولا يبقىٰ معك إلا عملك، فإن من كرامة الله علىٰ عبده أن يستره في قبره، فلا يرىٰ ملكا العذاب، ولا يُعرض عليه شؤم ذنبه، بل يُفتح له بابٌ من الجنة، ويُنوَّر له قبره، ويؤنسه بالرضا.

أما في يوم القيامة، حين يُفشىٰ كل مستور، وتُعرض الصحائف، وتُكشف الخفايا، فإن من عباد الله من يناجيه ربه سرًّا دون أن يطلع عليه أحد، ويقول له: «قد سترتُها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم»، فياله من ستر في موطن الفضائح، وعفوٍ في يوم الندامة.

من عاش مستورًا... مات مستورًا، وبُعث مستورًا، وقُدّم علىٰ ربه مستورًا.

عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال رسول الله ﷺ: «يُدنىٰ المؤمن من ربه يوم القيامة حتىٰ يضع عليه كنفه، فيقرره بذنوبه، فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أي رب، حتىٰ إذا قرّره بذنوبه، ورأىٰ في نفسه أنه قد هلك، قال: «سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم»، «فيُعطىٰ صحيفة حسناته»[(١)].

---

(١) صحيح البخاري (٢٤٤١)، وصحيح مسلم (٢٧٦٨).

قال مجاهد بن جبر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العمل الصالح يكون للرجل في قبره مثل الجبل، يمنع عنه أذىٰ القبر، كما يقي الدرع من السلاح»[١].

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة**»[٢].

قال مطرف بن عبد الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العبد الصالح لا يُفزع من الملكين، ولا يسمع صريرهما، بل يُرحب بهما، ويقولان له: أبشر، فقد ستر الله عليك، ورضي عنك»[٣].

اللهم اجعلنا ممن سترته في الدنيا، وسترته في القبر، وسترته يوم القيامة، ولا تفضحنا يوم العرض، يوم لا ينفع مال ولا بنون.

۞ النوع الخامس من أنواع ستر الله للعبد الستر له عن البلاء والفتن

الستر في زمن البلاء والفتن ليس مجرّد ستر عن أعين الخلق، بل هو رحمةٌ إلـهية تنقذ العبد من الانكشاف والمهالك، وتحفظ دينه وعِرضه، وتثبّته علىٰ الصراط حين تزلّ الأقدام.

---

(١) ابن أبي الدنيا، "ذكر الموت" (١٢٥).

(٢) صحيح مسلم (٢٦٩٩)

(٣) ابن أبي الدنيا، "أهوال القبور" (ص: ١٣٣)، والذهبي، "السير" (٤/ ٤٩٧).

في زمن الفتن، يُبتلىٰ الناس في دينهم وأخلاقهم، ويُفتنون في أموالهم وأنفسهم، ويقع الكثير في الزلل، ولكن الله بفضله يستر من شاء من عباده، فيخفي زلّاتهم، ويقيهم غوائل الفتنة، ويُجنّبهم التورط في المحظورات أو الوقوع في الفتن الظاهرة والباطنة.

الستر في البلاء نوع من التمكين الخفي، لا يراه الناس، لكنه دليل علىٰ محبة الله للعبد.

قال ابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من وقاه الله الفتن فقد رحمه»(١).

قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن الفتنة إذا أقبلت عرفها كل عالم، وإذا أدبرت عرفها كل جاهل»(٢).

قال ابن سيرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لو رأيتموني علىٰ معصية فادعوا لي ولا تفضحوني»(٣).

الستر عند البلاء والفتن هو حفظ من الله لعبده، ومن رأىٰ من نفسه أنه سُتر في وقتٍ تزلّ فيه الأقدام فليعلم أنها رحمة عظيمة ونعمة جليلة تستوجب الشكر والتواضع، لا الاغترار، وليحذر أن يُزيح ستر الله عن غيره، فيبتليه الله بما سخر

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في "المصنف" (٣٨٥٤٥) بسند صحيح.

(٢) أخرجه الآجري في "الشريعة" (١/ ٢٨٤).

(٣) "أدب الإملاء والاستملاء" للسمعاني (ص ١١٦).

منه.

❁ سادسا: الستر في العرض والسمعة

الستر علىٰ عرض الإنسان وسمعته من أعظم النعم، فكم من عبدٍ لا يملك مالًا ولا منصبًا، لكنه محفوظ العرض، مرفوع الذكر، محمود السيرة، وهذه نعمة لا توازيها كنوز الأرض، وقد كان من دعاء النبي ﷺ: «**اللهم إني أسألك... العفاف والغنىٰ**».

والعفاف يشمل عفاف النفس والجوارح واللسان، وعفاف العرض، فمن رزق عفافًا فقد رزق خيرًا كثيرًا.

والستر في العرض باب عظيم من أبواب الرحمة والعدالة، وكم من شخص نال الطعن في عرضه ظلمًا، فهلكت به أقوام ونجا عند الله، وكم من مفتون هتك أعراض الناس، فانقلب عليه شره وفضحه الله ولو بعد حين.

وستر السمعة والعِرض من صفات الله جل وعلا، ومن جميل أسمائه: الستير، فهو الذي يستر علىٰ عباده عوراتهم وعيوبهم، ويحب من عباده أن يستر بعضهم علىٰ بعض.

قال رسول الله ﷺ: «**من ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة**».

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: «**ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا**

والآخرة»(١).

هذا الحديث من أعظم ما يُستشهد به في باب ستر العرض، فإنه يشمل ستر الذنوب، والعيوب، وستر ما يُشوّه السمعة أو يفضح الإنسان.

قال النبي ﷺ: «**يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإن من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته فضحه ولو في جوف رحله**»(٢).

قال عمر رضي الله عنه: «لا تظن بكلمة خرجت من أخيك سوءًا وأنت تجد لها في الخير محملاً»(٣).

قلت: الستر علىٰ العرض والسمعة عبادة جليلة وقربة عظيمة، وهو خلق الأنبياء والعباد الصالحين.

ومن فرّج عن مسلم كربة في عرضه، أو ذبّ عنه، أو دفع عنه ظنّ السوء، فرّج الله عنه كرب يوم القيامة.

فليحذر العبد من الولوغ في أعراض الناس، فإن الجرح في العرض لا يُشفىٰ بسهولة، وقد يكون سببًا للهلاك في الآخرة.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨٠).

(٢) رواه أبو داود (٤٨٨٠)، وصححه الألباني.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في "الصمت" (رقم ٣٥٨)، وسنده حسن.

❁ سابعا: الستر في المستقبل

أن يكتب الله لعبده الستر في مستقبل أيامه، فذاك فضل عظيم ومنّة جليلة، لا يدركها إلا من رأىٰ كيف تُهتك أستار الناس في شيخوختهم، أو عند ضعفهم، أو في آخر حياتهم بعد أن كانوا في نظر الخلق من الصالحين.

كم من عبدٍ عاش مستورًا، محفوظ السمعة، حتىٰ إذا تقدّم به العمر، أو ضعف جسده، زلّ لسانه، أو اختلت عافيته، أو تغيّرت أحواله، فانكشفت أسرار عمره، أو ظهرت عيوبٌ لم تُعرَف من قبل، فصار عبرة بعد أن كان قدوة! ولذلك، فإن أعظم ما يُسأَل من الله أن يختم للعبد بخير، ويظلّ عليه ستره حتىٰ يُقبض علىٰ طاعة، لا أن يُبتلىٰ بالفضيحة في أرذل العمر، وقد قيل: «من أصلح ما بقي، غُفر له ما مضىٰ، ومن أفسد ما بقي، أُخذ بما مضىٰ وما بقي».

وستر المستقبل لا يُنال بالتمني، بل بصدق التوبة، واستمرار المجاهدة، والإخلاص، والدعاء الدائم بالثبات، ومن أعظم الأدعية: «اللهم احسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة».

قال يحيىٰ بن معاذ الرازي: «استر عيوب نفسك بما تستر به عيوب غيرك، واعمل في سريرتك بما تحب أن يراه الله منك في علانيتك، فإنه لا يُخدع»(١).

قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا رأيت الرجل ينافس في الدنيا فاعلم أن

---

(١) "حلية الأولياء" (١٠/ ٦٠)

الخذلان قد أحاط به، وإن رأيته ينافس في العمل فاعلم أن الله أراد به خيرًا، وإذا رأيت الرجل يُحب أن يُذكر فاعلم أنه قليل العمل»(١).

قال عبد الله بن المبارك: «من استهان بالستر في الدنيا سقط منه في الآخرة»(٢).

الستر في المستقبل، في آخر العمر، في وقت الضعف، في آخر الأنفاس، نعمة لا توازيها نعمة، ولا يثبت عليها إلا الصادقون.

وقد كان السلف يدعون الله أن يُتم ستره عليهم كما ابتدأه، وألا يفضحهم بعد أن سترهم سنين، لأن الفضائح بعد الكِبَر لا تُحتمل، وتُطمس بها سيرة السنين إن لم يتدارك الله العبد برحمته.

---

(١) «الزهد الكبير» للبيهقي (١/ ١٢١).

(٢) «الزهد» لابن المبارك (ص ٣٠).

كيف يهيئ العبد لنفسه حسن الخاتمة

حُسنُ الخاتمةِ أمنيةُ الصالحين، وغنيمةُ العاقلين، وأجلُّ ما يُختم به عمرُ العبد، وهي ليست أمنيةً تُنال بالتمني، بل بتوفيقٍ من الله يُنالُ ببذل الأسباب. فمَن عاش علىٰ شيءٍ ماتَ عليه، ومَن ماتَ علىٰ شيءٍ بُعِثَ عليه.

وما أحسنَ ما قال الحسن البصري: «إن الله لا يُصلحُ آخرَ هذا الأمر إلا بما صلح به أوله، فاستقيموا كما أُمرتم، واثبتوا حتىٰ الممات»(١).

وهناك عدة أسباب يهيئ بها العبد حسن خاتمته

أولاً: الإخلاص الدائم لله تعالى

الإخلاص هو أن يعمل العبدُ العمل لا يبتغي به إلا وجه الله، لا يُرائي، ولا يُريد مديحًا، ولا يتطلع إلىٰ منزلة في قلوب الناس. والإخلاص سرّ القبول، ومفتاح الخاتمة الحسنة، فإن من كان قلبه لله، ثبّته الله، ووفقه، وختم له بالحسنىٰ.

قال سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما عالجت شيئًا أشدّ عليّ من نيتي، إنها تتقلب

(١) «الزهد» للبَيهقي (٢/ ٢٠٧).

عليّ»[١].

وصدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فالإخلاص عزيز، لكنه مفتاح كل خير، ومن ابتغىٰ به وجه الله وحده، فإن الله أكرم وأرحم من أن يُضيع سعيه أو يُخزيه عند الخاتمة.

وحديث أصحاب الغار – أعظم دليل علىٰ ذلك: قال ﷺ: «انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتىٰ آواهم المبيت إلىٰ غار... فانطبقت عليهم الصخرة... فقالوا: إنه لا يُنجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم...».

فدعوا الله بإخلاص أعمالهم ففرّج الله عنهم[٢].

والشاهد: أنهم أخلصوا أعمالهم لله فنجَّاهم الله في الكرب العظيم، ومن باب أولىٰ أن يُنجي المخلص عند كرب الموت وخاتمة الأجل.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأكثر من يُخاف عليه سوء الخاتمة، من كان مُخبِطًا في أمر الدين، يُرائي بعمله، أو يعمل لهوىٰ نفسه، لا لله، فإن ذلك لا يثبت عند الموت»[٣].

قال عبد الله بن المبارك: «رُبَّ عمل صغير تُعظِّمه النية، ورب عمل كبير

---

(١) "الزهد والرقائق" لابن المبارك (ص٤٤٩).

(٢) صحيح البخاري (٣٤٦٥) ومسلم (٢٧٤٣).

(٣) "الجواب الكافي" (ص١١٦).

تُصغِّره النية»[١].

من أصلح نيته لله، أصلح الله له شأنه كله، ومَن طهَّر قلبه من الرياء، طيَّب الله له خاتمته، ومَن أراد حسن الختام، فليكن عمله لله وحده، لا للناس، ولا لنفسه، ولا لطمعٍ في دنيا.

نسأل الله أن يجعلنا من المخلصين، وأن يختم لنا بخير، فإنه أكرم من أن يُخيّب عبدًا قصده بصدق.

إذا أردت جمع الآثار أو توثيقها في ملف واحد لاحقًا، فأخبرني بذلك.

۞ ثانيًا: الاستقامة والثبات على الطاعة

إن الثبات علىٰ طاعة الله حتىٰ الممات هو برهان صدق الإيمان، ودليل رجحان العقل، وشاهد الاستعداد للرحيل، فالعبد لا يُؤمَن عليه الفتنة ما دام حيًّا، وقد قال بعض السلف: «لا يغرنّ أحدكم بكثرة صلاةٍ ولا صيام، حتىٰ ينظر كيف الخاتمة».

فكم من عبدٍ اجتهد زمانًا، فزلَّ في الختام! وكم من عبدٍ ثبَّته الله علىٰ الطاعة حتىٰ فاضت روحه وهو يذكره!.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا

(١) «الزهد» لابن المبارك (ص١٩).

تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ﴾ [فصلت:٣٠].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي ثبتوا علىٰ الإيمان، والعمل الصالح حتىٰ ماتوا، فكان جزاؤهم أن نزلت عليهم الملائكة عند الموت بالبُشرىٰ»[(١)].

وقال تعالىٰ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ [إبراهيم:٢٧].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: عند الموت، وفي القبر، وفي الموقف، يثبتهم في الدنيا علىٰ الإيمان، وفي القبر عند السؤال»[(٢)].

وقال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الثبات علىٰ الطاعات، من أعظم أسباب حسن الخاتمة، وقد يُختم للعبد بأحبِّ طاعاته، فيلقىٰ الله بها»[(٣)].

الثبات علىٰ الطاعة هو دليل التوفيق، ومن شُغِل بطاعة الله، ثبته الله عند نزول البلاء، وعند سكرات الموت، وعند سؤال الملكين. وإنها لأمنية الصالحين: ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾ [يوسف:١٠١].

نسأل الله أن يرزقنا وإياكم الثبات حتىٰ الممات، وحُسن الختام، وأن يجعل

---

(١) "تفسير الطبري" (٢٤/ ٦٣).

(٢) "تفسير ابن كثير" (٤/ ٥٢٠).

(٣) "جامع العلوم والحكم" (ص٢٨).

آخر كلامنا من الدنيا لا إله إلا الله.

ثالثًا: كثرة ذكر الموت

من أكثر ذكر الموت، قصُر أمله، وحسُن عمله، وصفَت سريرته، فتهيّأ قلبه لمجالسة الملائكة في اللحظة التي يُفارق فيها الدنيا.

ذكرُ الموت لا يُميت القلب، بل يُحييه، ولا يُكدّر العيش، بل يُطهّره، وهو الذي يجعل العبد ينظر للدنيا نظرة عابر سبيل، ويستعدّ بزادٍ يكفيه إذا وضِع في لحده، لا أن يغفل ثم يفاجأ بالخاتمة دون استعداد.

قال إبراهيم التيمي رَحِمَهُ اللَّهُ: «مثّلتُ نفسي في الجنة آكل من ثمارها وأشرب من أنهارها، ثم مثّلتُ نفسي في النار آكل من زقومها وأشرب من صديدها، فقلت: أيّ نفس، أيّ شيء تريدين؟! فقلت: أريد أن أُردّ إلىٰ الدنيا فأعمل صالحًا، فقلت: ها أنت في الأمنية فاعملي»[1].

وقال رسول الله ﷺ: «أكثروا ذكر هاذم اللذات: الموت، فإنه ما ذكره عبدٌ في ضيقٍ من العيش إلا وسّعه عليه، ولا في سَعةٍ إلا ضيّقها عليه».

أي: من ذكره وهو في لهو، رقّ قلبه، واستعد، ومن ذكره وهو في كرب، صبر واحتسب، فيكسب في الحالتين.

---

(١) «الزهد» لابن المبارك (ص ٥٣).

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كنتُ مع رسول الله ﷺ، فجاءه رجلٌ من الأنصار، فسلّم، ثم قال: يا رسول الله، أيّ المؤمنين أفضل؟ قال: أحسنهم خُلقًا، قال: فأيّ المؤمنين أكيس؟ قال: أكثرهم للموت ذكرًا، وأحسنهم لما بعده استعدادًا، أولئك الأكْياس»[(١)].

قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «من عرف أن الموت مورده، والقيامة موعده، والوقوف بين يدي الله مشهده، فليجعل لنفسه في الدنيا زادًا»[(٢)].

وقال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنّ الليل والنهار يعملان فيك، فاعمل فيهما، واذكر الموت، فإنك لا تدري متىٰ تلقاه»[(٣)].

من عاش ذاكِرًا للموت، مات مستعدًّا، ومن مات مستعدًا، كانت خاتمته طيبةً، والروح عند الموت إنما تُقبَض علىٰ حال القلب؛ فإن كان حاضرًا ذليلًا منيبًا، حُسن ختامه، وإن كان لاهيًا غافلًا، فلا يلومنّ إلا نفسه.

نسأل الله أن يجعل الموت أحبّ اللحظات إلينا، وأن يجعل آخر كلامنا لا إله إلا الله، وأن يُكرمنا جميعًا بحُسن الخاتمة.

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٢٥٩) وصححه المنذري والألباني.

(٢) «الزهد» للإمام أحمد (ص٢١٩).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ١٢١).

رابعًا: عدم الإصرار على المعاصي

من أعظم ما يُهيئ القلب لحُسن الخاتمة أن لا يُؤلِف الذنب، ولا يألف المخالفة، ولا يُقيم على المعصية مستكبرًا أو مصرًّا أو مُطمئنًّا، بل كلما أذنب تاب، وإذا زلّ ندم، وإذا عجز بكىٰ، فكان بذلك ممن يُرجىٰ له الخاتمة الطيبة، لأن من كانت توبته دائمة، وخوفه حاضرًا، وخشيته ظاهرة، كان قلبه حيًّا، وإذا حضرت الوفاة لم يكن غافلًا ولا معرضًا، بل تاليًا، مستغفرًا، ذاكرًا، نادمًا قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران:١٣٥].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «أي: بادروا إلىٰ التوبة، ولم يستمروا علىٰ الذنب، وهم يعلمون قبح ما فعلوا»(١).

وقال الله جل وعلا: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات:٣٧-٤١].

والمعنىٰ: أن الخوف من الله وكفّ النفس عن المعاصي، أعظم سُبل النجاة والخاتمة الطيبة.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (١/ ٤٠٣).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الإصرار علىٰ الذنب أخطر من الذنب نفسه، فإن الإصرار يقطع طريق التوبة، ويُطفيء حرارة الندم، ويُبرِّر الذنب في قلب العبد»[١].

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المؤمن لا يصبح إلا خائفًا، ولا يُمسي إلا خائفًا، بين ذنبٍ يخاف أن يُعذّب عليه، وطاعةٍ يخاف أن لا تُقبل منه»[٢].

وقال سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا رأيت الله يُتبع عليك نعمًا، وأنت مقيم علىٰ معصيته، فاحذر، فإنما هو استدراج»[٣].

قال الإمام ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من أعظم أسباب سوء الخاتمة: الإصرار علىٰ المعاصي، واستبطاء التوبة، وتسويف الأوب».

(١) "الداء والدواء "(ص ١٢٢).

(٢) "الزهد" للإمام أحمد (ص ٢٩٧).

(٣) "سير أعلام النبلاء" (٧/ ٢٤٣).

فهرس